

١٢

المسلمون في السّنغال

معالم الحاضر وآفاق المستقبل

عبد القادر محمد سيلا

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون في السنغال

معالم الحاضر وآفاق المستقبل

عبد القادر محمد سيلا

الطبعة الأولى

ماينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها.



سلسلة فصلية، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، في دولة قطر.

صدر منها:

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية "طبعة ثالثة"
  للشيخ محمد الغزالي
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف "طبعة ثالثة"
  الدكتور يوسف القرضاوي
- العسكرية العربية الإسلامية "طبعة ثالثة"
  اللواء الركن محمود شيت خطاب
- حول إعادة تشكيل العقل المسلم "طبعة ثالثة"
  الدكتور عماد الدين خليل
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري "طبعة ثالثة"
  الدكتور محمود حمدي زقزوق
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري "طبعة ثالثة"
  الدكتور محسن عبد الحميد
- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين "طبعة ثالثة" "طبعة إنجليزية"
  الدكتور نبيل صبحي الطويل
- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي "طبعة ثانية"
  عمر عبيد حسنة
- أدب الاختلاف في الإسلام "طبعة ثانية"
  الدكتور جابر فياض العلواني
- التراث والمعاصرة "طبعة ثانية"
  الدكتور أكرم ضياء العمري
- مشكلات الشباب: الحلول المطروحة والحل الإسلامي "طبعة ثانية"
  الدكتور عباس محجوب

المسلمون في السّنغال

معالم الحاضر وآفاق المستقبل

شوّال ١٤٠٦هـ

تقديم

بقلم: عمر عبيد حسنة

■■ إنَّ الحمد لله ؛ نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضلّ له ، ومن يُضلل فلن تجد له وليًّا مرشدًا ، وأشهد ألاَّ إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمدًا ﷺ عبده ورسوله الذي أرسله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا ، وجعل ميزان الكرامة فيما دعا إليه : التقوىٰ والعمل الصالح ، فكانت المساواة وإلغاء الفوارق والتمييز العنصري

واللوني روحَ الحضارة الإسلامية ، التي جاءت نسيجًا متشابك العطاء من حيث المساهمات البشرية ؛ إلى درجة لا يمكن معها أن تصطبغ بغير اللون الإسلامي والعطاء الإنساني ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَة ﴾ وبعد :

فهذا كتاب الأمة الثاني عشر (**المسلمون في السنغال : معالم الحاضر وآفاق المستقبل**) للأستاذ عبد القادر سيلا ، في سلسلة الكتب التي تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر ، مساهمة منها في تحقيق الوعي الحضاري ، والتحصين الثقافي ، إلى جانب العطاء الصحفي والدور الإعلامي الإسلامي الذي تضطلع به مجلة « **الأمّة** »... يأتي لونًا جديدًا ، ويشكل إضافة نوعية نرجو الله تعالى أن تكون باكورة لمجموعة من الدراسات الميدانية لحاضر العالم الإسلامي وواقع المسلمين في العالم ، ولعلَّ مجموعة الاستطلاعات المصوّرة التي قدمتها « **الأمّة** » في هذا المجال قد حققت قدرًا لا بد منه من المعرفة بأحوال المسلمين ومشكلاتهم والتحديات التي تواجههم ؛ والتي نأمل أن نتمكن من جمعها وترتيبها وتقديمها في سلسلة كتاب الأمة مستقبلاً إن شاء الله ، إلاَّ أنَّ البحث المتخصص في كتاب يبقى له من الشمول والإحاطة والاستقراء الكامل ما يجعله ذا عطاء متميز ، خاصة إذا كان المؤلِّف من أبناء المنطقة ، و « أهل مكة أدرى بشعابها » . . .

ولا بد لنا من الاعتراف بالتخلف المخجل في مجال الدراسات

الاجتماعية ، وحسبنا في ذلك معرّةً أن تكون دراسات غير المسلمين عن حاضر العالم الإسلامي هي التي تغطي الجانب الكبير من مصادرنا للمعلومات ، ودليلنا إلى المعرفة . . .

أما بالنسبة لأفريقيا بالذات - التي نزعم أنها القارة المسلمة - فمعظم مصادرنا للمعلومات والإحصاءات السكانية ، ودليلنا إلى معرفة العبادات والعادات القبلية تكاد تكون كنسية محضة ، في الوقت الذي لا يزال كثير منَّا لا يرى آفاقًا للعمل الإسلامي إلاَّ بالوقوف طوابير أمام الأبواب المغلقة والجدران المسدودة . ونكاد نقول هنا بأنَّ هذا الواقع البائس الذي نحن عليه ، وهذه الإحباطات المستمرة التي نعاني منها إنما جاءت نتيجة لعدم وجود الدراسات المتأنية والدقيقة لعالم المسلمين وقضايا العالم بشكل عام ، ذلك أننا نحاول التحرك في عالم لا ندرك أبعاده تمام الإدراك على أحسن الأحوال ، وكثيرًا ما تكون انتصاراتنا لقضايا كثيرة انتصارات عاطفية بعيدة عن أية معرفة وبصيرة ؛ وحسبنا هنا أن نأتي بأنموذج واحد من عمل غير المسلمين إلى جانب مئات النماذج والألوف من الدراسات التي تتعهدها الدول أحيانًا ، وتستقل بها بعض المعاهد والمؤسسات الخاصة المتخصصة أحيانًا أخرى ؛ ففي دراسة إحصائية حول الأديان أصدرت جامعة «أوكسفورد» موسوعة أسهم فيها أكثر من خمسمائة خبير في الأديان ، تجولوا في مائتين واثنتي عشرة دولة ومقاطعة في العالم لأخذ العينات وإجراء الدراسات الإحصائية ، واستمر هؤلاء الخبراء في العمل حوالي أربع عشرة سنة متواصلة ، وكان مما جاء في هذه الدراسة أن الدوائر

الكنسية قلقة جدًا من ظاهرة المدّ الإسلامي في القارة الأفريقية ، إذ أنَّ الإسلام ينتشر فيها بسرعة مذهلة ، وقد بلغ معدّل نمو الدين الإسلامي ٢٣٥٪ وينبع التخوف الكنسي من ظاهرة المدّ الإسلامي في أفريقيا من إدراك الأعداء أن الإسلام يلقى قبولاً سريعًا لدى الإنسان الأفريقي ، لأنه دين الفطرة الذي جاء بالمساواة وإلحاق الرحمة بالناس ؛ بعيدًا عن التمييز العنصري وأوضار الاستعمار اللذين ترافقا مع الوجود النصراني .

والحقيقة أنَّ الخارطة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية لأفريقيا بالشكل المطلوب لا تزال غائبة عن المسلمين بشكل عام ، وعن المؤسسات والجمعيات والجماعات المعنية بشؤون الدعوة الإسلامية بشكل خاص . ولقد آن الأوان لتأخذ وسائلنا في العمل الإسلامي شكلاً مدروسًا يأتي استجابة لرؤية صحيحة عن الواقع الذي نتعامل معه ، وقد يكون من الأمور المؤسفة أن الكثير من الدراسات والتقارير التي تقدم عن أفريقيا - والتي نحاول فيها تقليد أعداء الإسلام - تحفظ في الأدراج ، ويلفّها الإهمال والنسيان ، ولا تجد طريقها إلى التحليل والدراسة ، ومن ثم وضع الخطط على ضوئها . ومع ذلك نبكي على ضياع أفريقيا بين الأطماع الاستعمارية والمؤسسات التنصيرية والاستلاب الصهيوني .

ولعلَّ من أبسط متطلبات الدعوة إلى الإسلام اليوم في أفريقيا ، وفي العالم بأسره : تشكيل الأقسام واللجان المتخصصة بقضايا أفريقية ونكاد نقول : تشكيل اللجان المتخصصة بكل دولة من دولها بل بكل قبيلة من قبائلها لتعد الدراسات الدقيقة وتضع دليل العمل

الذي يمكّن من فهم طبيعة الإنسان المخاطَب ، وذلك بدراسة الخلفية التاريخية لثقافته وعقيدته واهتماماته ، واستحضار تاريخه بشكل عام ؛ حتى نتمكن من معرفة المداخل الصحيحة لشخصيته ، وحتى يأتي الكلام مطابقًا لمقتضى الحال ، وحتى نخاطب الناس على قدر عقولهم ، كما يقول سيدنا علي رضي الله عنه ، خشية أن يفتتن الناس ويكذّب الله عزَّ وجلّ ورسوله ﷺ : (خاطبوا النَّاس على قدر عقولهم ، أتحبون أن يكَذَّب اللَّه ورسوله ؟!) وكم أسفت أثناء زيارتي لبعض المؤسسات المعنية بشؤون الدعوة في غربي أفريقيا عندما طلبت إليها إطلاعي على ما لديها من دراسات أستطيع بواسطتها الإفادة من الزمن المقرر للزيارة والدخول إلى تلك البلاد من الأبواب الصحيحة ، فلم أظفر بأكثر من ملاحظات عامة قد يمتلكها عامة المسلمين لا تسمن ولا تغني من جوع ، حيث لم تقدم لي جديدًا . وقد يكون مفيدًا هنا أن نأتي على ذكر بعض النماذج من مسالك أعدائنا في هذا المجال . . . فإلى جانب الدراسات والبحوث كلها وعمليات المسح الاجتماعي والتحليل الثقافي الموجهة التي قدمتها الكنيسة ومن ورائها الاستعمار عن أفريقيا ، والتي تعتبر إلى حدٍّ بعيد دليلَ عملٍ لكل من يفكر بالتعامل مع هذه القارة التي يُعاد تشكيلها من جديد ، فإنَّ هناك دورات تدريبية لمدة أربعة أشهر أو سنة تُقام في معظم الدول الاستعمارية خاصة الولايات المتحدة ، تدرب فيها العناصر المهيأة للذهاب إلى أفريقيا ، وتزود بكل المعرفة المطلوبة حول المناخ والبيئة ، وحول السكان وطبائعهم وعقائدهم ولهجاتهم المحلية ، وما يثيرهم

وما يرضيهم ؛ ومن ثم يسافر المبعوث إلى هناك ، ويختص بمعايشة قبيلة والانتساب إليها وحمل اسمها والحياة معها والحديث بلهجتها المحلية وكأنه جزء منها ، ومن ثم يكون قادرًا على أداء رسالته التي جاء من أجلها ، ويقدم دراسات تعتبر إضافة حقيقية لعمل من سبقوه في هذا المجال . وفي محاولة لإلغاء كل نسب بين أفريقيا والإسلام تكرس اللهجات المحلية ، وتوضع لها أبجديات بالحروف اللاتينية بعد أن أُلغي الحرف العربي ـ كما هو الشأن في تركيا والملايو وغيرهما من بلاد المسلمين ـ وتصنف المعاجم ، ويوفر المستعمر المتخصصين ويقيم مخابر لتطوير اللغات المحلية المتعددة وتأصيلها ؛ ومن المفارقات العجيبة أن تكون لغة المستعمر ـ الفرنسية ـ هي اللغة الرسمية في السنغال وفي بقية الدول الأفريقية التي كانت تخضع لهذا الاستعمار ، في الوقت الذي تحرم فيه العربية وحرفها ، وهي لغة العقيدة والدين لشعب السنغال ، وعدد المسلمين فيه يربو على ٩٥٪ من مجموعه ؛ والسنغال قديم عهد بالإسلام منذ أن انطلقت منه حركة المرابطين من ألف سنة تقريبًا .

ولكن ، ربّ ضارة نافعة ـ كما يقولون ـ ذلك أنَّ التحدي الثقافي والضربات الموجعة أسهمت إلى حدّ بعيد بيقظة الأمة ، وأعطت حركة المد الإسلامي زخمًا جديدًا بعد أن استشعرت هذا التحدي ، فقامت المدارس العربية الإسلامية التي تعتبر بحق حصون الإسلام ولغة التنزيل ، ولقد أثبتت وجودها حتى على المستوىٰ الرسمي .

وأمر آخر لا يقل خطورة عن أمر اللغة ، وإنما هو مكمل لها ، وقد ركزه المستعمر على يد بعض الأفارقة أنفسهم ، وهو الدعوة إلى

الإسلام الأسود ؛ ليكون إسلامًا خاصًا بالأفريقي ، ولقد تركزت هذه الدعوة في السنغال ، وأمر التركيز على السنغال ليس خافيًا على أحد ؛ لما يتمتع به من الموقع والتأثير على غربي أفريقيا خاصة وعلى سائر أفريقيا عامة ، يقول « بول مارثي » : (إنَّ ثوب الإسلام أيًا كانت بساطته ولياقته ، لم يفصَّل للسود ، فهؤلاء يفصِّلونه من جديد لمقاييسهم ، ويزينونه حسب ذوقهم . . . إنَّ الإسلام الأسود بحكم اختلاف البيئة والمحيط الاجتماعي مغاير لإسلام العرب) وقد ألَّف « فينسان مونتي » كتابًا في الستينيات تحت عنوان « الإسلام الأسود » هذا إلى جانب الدعوات إلى الإقليمية التي تحاول تسوية النصرانية بالإسلام ، واعتبار كل منهما دينًا طارئًا على أفريقيا ، والدعوة إلى العودة بالأفارقة إلى أديانهم القديمة .

ومحاولة الانحراف بالإسلام من داخله عند العجز عن مواجهته ليست جديدة ولا مبتدعة ، وما الأفاعيل التي دبرت لحركة المسلمين السود في الولايات المتحدة عنّا ببعيدة ، ومع أن الإسلام في أفريقيا بخير ، والمسلمين يكافحون بوسائلهم البسيطة ، ويواجهون أعظم التحديات المزوَّدة بأكبر الإمكانات والدراسات المتقدمة ، حيث يصدق فيهم قول الرسول ﷺ : « درهم سبق ألف درهم » إلَّا أنَّ ضرورة الالتفات إلى أفريقيا بشكل سليم ومدروس أصبح أمرًا لا يحتمل التأخير ؛ وقد يكون المطلوب مزيدًا من الدراية وفقه المجتمع ومشكلاته التاريخية ، وفي تقديرنا أنه لا تتوفر الحكمة المطلوبة في أمر الدعوة ما لم تتحقق تلك الدراية وتتحصل المعرفة والتصور الكامل والدقيق للواقع الذي انتهى إليه الناس

هناك ، لأنَّ الحكمة في أبسط مدلولاتها هي : وضع الأمور في مواضعها ؛ فكيف تتأتى الحكمة في معالجة القضايا والمشكلات إذا لم نتمكن من معرفة أبعاد هذه القضايا ، وأسباب تلك المشكلات وتاريخها ، والعمر الذي تُوضعت من خلاله ؟ وكيف يمكننا توفير المقدمات والعناصر التي تقودنا إلى الحكمة في الدعوة والمعالجة ؟

ومن المعروف تاريخيًّا أن انتشار الإسلام في بعض مناطق أفريقيا كان عن طريق التجار والمسافرين ، وكان سلوكهم الإسلامي المتميز يبعث على الإيمان ويثير الاقتداء عند الإنسان الأفريقي الذي أشعره الإسلام بقيمته ومساواته بالآخرين ، وقد لا يكون هؤلاء على درجة كافية من الفقه والعلم بدين الله تعالى إلى جانب عوامل أخرىٰ مما أورث اختلاط الإسلام ببعض العقائد والعادات الأفريقية القديمة ، واعتبر الكثير منها من الإسلام ؛ ولا بد هنا من الحكمة البالغة في المعالجة ؛ وقد تكون المعالجة الأخطر والأكثر ضررًا في التفكير الذي يمارسه بعض الذين يعملون في مجال الدعوة الإسلامية بعقل ضيق ، ونظر عليل ، وفقه قليل ، فيوزعون السكان بين التنصير والتكفير ، ويحاصرون أنفسهم فلا يجدون مجالاً لدعوتهم وكأن بعض من تصدوا لأمر الدعوة الإسلامية تخصصوا بتفريق وحدة المسلمين !!

يحدث هذا في الوقت الذي تفعل الكنيسة ما تفعله من قبول للعادات الأفريقية ابتداءً ، لتكون الوسيلة إلى جذب هؤلاء الأفارقة إلى النصرانية ، ويوالي البابا زياراته للقارة الأفريقية لمواجهة المد الإسلامي ومحاولة انتزاع أفريقيا من المسلمين .

واليوم تتابع النصرانية المدعومة ماديًا ومعنويًا من أوروبا وأمريكا توسعها في أفريقيا ، وتتغلب على المصاعب التي عاقت تقدمها ، خاصة قضية ارتباطها بالثقافة الاستعمارية الغربية ؛ فتبذل الجهود لصبغ النصرانية بالصبغة المحلية ، وإقامة (مسيحية أفريقية) فالبروفسور «مبيتي» يقول : إنه حان الوقت لكي تتصالح المسيحية مع الديانات الأفريقية وأساليبها ، وأن يكون طابعها (صنعت في أفريقيا) ، كما قال بابا الفاتيكان في زيارته لأوغندا عام ١٩٦٩م : « إنَّ تكييف الحياة المسيحية في المجالات الدعوية ، وفي مجالات الطقوس والنشاطات التعليمية والروحية ، ليس ممكنًا فقط ؛ ولكن الكنيسة تشجعه ، وتجديد أساليب القداس هو مثال حي على ذلك ، وفي هذا الاتجاه يمكنكم ويجب عليكم أن تكون لكم مسيحية أفريقية » .

ولقد قام المنصِّرون باستثمار طويل الأجل ، وحضَّروا الأطر المطلوبة لعهد ما بعد الاستعمار عندما أشرفوا على التربية والتعليم في عهد الاستعمار ، وحاولت الكنائس المشاركة في مشاكل وطموحات الشعوب الأفريقية ، مثل الاستقلال الوطني ، وإنهاء التفرقة العنصرية لتأمين استمرارية دورها في عهد الاستقلال ، وقد شعرت هذه الكنائس بالحاجة إلى التعاون والتنسيق فيما بين مختلف مذاهبها ، وها هي الآن تعمل مع بعضها في هيئات ، مثل : المجلس الوطني المسيحي في كينيا ، والمجلس المسيحي التنزاني ، ومجلس كنائس جنوبي أفريقيا ، ومجلس الكنائس في زيمبابوي ؛ بل إنَّ هناك محاولات لإزالة الفروف المذهبية بين

مختلف المذاهب المسيحية في أفريقيا . . . كمخطط للاستقرار والتوسع في المستقبل .

ونحن بهذا لا نقر الخطأ ، ولا نريد الإبقاء على الواقع ، لكننا لا يجوز بحال من الأحوال أن نخطىء الوسيلة في المعالجة فنعمل على تصليب الواقع وتنفير الناس بالمواجهة المباشرة ، بل لا بد من أن نبدأ بالتعليم الصحيح المرتكز إلى الكتاب والسنة ، وأن نستفيد من العاطفة الإسلامية في بناء أجيال جديدة ابتداءً ، لتنحسر ـ شيئًا فشيئًا ، وجيلاً فجيلاً ـ دائرة الخرافات والبدع ، وبذلك تتم التصفية تلقائيًا فالعلل المزمنة التي مرَّت عليها القرون لا يمكن أن تعالج بخطبة أو بدرس بعيدًا عن سنة التدرج .

ومما لا شك فيه أن للحركة الصوفية دورًا كبيرًا غير منكور ضد المستعمر ، وفي نشر الإسلام وحمايته أيضًا ، ولها اليوم رصيد كبير من الأتباع والمريدين ؛ ولا شك أيضًا أن بعض شيوخها الأوائل كانوا على درجة من العلم ، وإن انحدرت الأمور بالوراثة في بعض الأحيان إلى أحفاد قد لا يكون لبعضهم نصيب من ذلك ، وإنما جاءت المحافظة عليها بدافع بناء الزعامات وتحصيل المنافع ؛ والحقيقة التي لا يمكن تجاهلها أن بعض الحكام ، ومن قبلهم المستعمر شأنه في كل مكان من العالم الإسلامي ، استغلوا جهل بعض من انتهت إليهم زعامة الطرق الصوفية ، وكان هذا الجهل مدخلهم لاحتواء هذه الطرق ، وتنميتها والإغداق عليها ، وتوظيف أتباعها لأغراض ليست خافية على أحد ، حيث ينعمون على شيوخها بالهدايا والأوسمة ، مما يشوه الصور الجهادية التاريخية والدور

الكبير في حماية ونشر الإسلام في أفريقيا ، ويكرس صور الانحراف لمحاربة الإسلام الصحيح .

وبعــد ؛ فقد يرى بعض الإخوة القرَّاء في الكتاب الذي نقدمه استطرادات كان بالإمكان الاستغناء عنها ، كما يرىٰ بعضهم الآخر ضرورة الاقتصار على الملامح المضيئة لإثارة التفاؤل وبعث الأمل في النفوس ، ورغبة منَّا في تقديم الصورة كاملة ، ومن جميع جوانبها آثرنا الإبقاء على جميع أجزائها .

ونقطة أخرىٰ قد لا تحتاج إلى التأكيد وهي أنَّ للمؤلِّف وجهة نظره في تقويم بعض ظواهر العمل الإسلامي في السنغال ، وهذا لا يعني بالضرورة وجهة نظر « **الأمّة** » فمن الحقائق الثابتة أن السنغال تشكل مركز الثقل والمحور الأساسي بالنسبة للمسلمين في غربي أفريقيا خاصة ، وفي أفريقيا عامَة ، وهو يعد بحق بوابة الإسلام إلى أفريقيا ، ونحن في « **الأمّة** » نعتز غاية الاعتزاز بتقديم هذه الدراسة المستقصية عن الإسلام والمسلمين في السنغال لتكون نواة وباكورة لدراسات جادة عن حاضر العالم الإسلامي وواقع المسلمين ، تقدم الصورة الدقيقة والأمينة ، وتتحقق بالحضور التاريخي ، وتستشرف آفاق المستقبل لتكون دليلاً يهتدي به المسلمون الذين يمارسون الدعوة اليوم ؛ خاصة وأنها جاءت بقلم أحد أبناء السنغال ، الأخ عبد القادر سيلا ، ولعلَّ تقديم هذا الكتاب بقلم أخ من البلد نفسه دليل على عالمية المنهج الذي عزمت « **الأمّة** » الالتزام به في أن تكون لجميع المسلمين ، وأن تنطلق من مفهوم الأخوة اسلامية الشاملة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد . ■■

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمدُ لِلَّهِ ٱلَّذي هَدَانا لهٰذا وما كُنَّا لنهتدِيَ لولا أنْ هَدَانا الله ﴾ وصلى الله على نبيه الكريم وسلم تسليمًا كثيرًا .

●● يغمرنا الأمل أن يساهم هذا الكتاب في التعريف بالإسلام في السنغال تعريفًا من شأنه أن يقرّب إلى ذهن غير المتخصص وضع العقيدة الإسلامية في ذلك القطر الإسلامي ، ويعكس - بكل صدق وأمانة - رؤية واضحة عن ماضي وحاضر ومستقبل الإسلام هناك .

وقد ارتأينا ألاَّ نورّط أنفسنا في نقل صور زاهية متألقة باهية تدغدغ عواطف القارىء ، وتستحوذ على مجامع مشاعره ، وتدخل البهجة والحبور على نفسه ، دون أن تبلّ غليله ، أو تشبع رغبة

الاطلاع لديه ، لأنها لا تعكس الواقع المعاش ، بل تطمره وتشوّهه بالتمويه والتزيين والتهويل ، مما يحول دون معرفة الحقائق ، ويثبط العزم عن تهيئة ظروفٍ لمعالجة ما يستحق العلاج .

وليس المقصد هنا طرح مختلف أوجه القضايا الإسلامية في السنغال على بساط الدرس والتحليل ، وإنما رائدنا أن نعرض ـ جهد المستطاع ـ لبعض الأمور المطروحة في الحقل الإسلامي بهذا البلد كي يسترشد بها العاملون في هذا الميدان .

وقد تعرضنا قصدًا لعدد من العثرات لدى مسلمي السنغال ، علَّ هٰذا أن يساهم في إنارة الطريق أمام أُولٰئك الذين سيتصدَّوْن لتدارك ما لا يستحيل تداركه ، ويصلحون ما لا مناص من إصلاحه ، ويواصلون العمل لترسيخ قواعد العقيدة الإسلامية السليمة ؛ إذ الإحساس بالثلم والثغرات ومعرفة مواقع الهفوات من شأنه أن يحفز على الاطلاع عليها ، واستيعاب أبعادها ، واحتوائها ثم إيجاد حلّ لها .

هذا ولا يتمارى اثنان في توفر العدد العريض بجانب الإسلام في السنغال ـ حوالي ٩٥٪ ـ وفي اكتظاظ المساجد فيه بمن يعمرها ، مما يبرهن على تشبث أهله بتلابيب شعائر دينهم .

إذنْ ترى ماذا يعوز الإسلام في هذا البلد ما دام مسلموه ملتزمين بالشعائر ؟

لا مراء أن في السنغال أقلية تنتسب إلى المعتقدات التقليدية ينبغي تجنيد القوىٰ لإبلاغها دعوة التوحيد وجذبها نحو العقيدة الإسلامية ، وسدّ الطريق على المنصِّرين الذين يعمل معظمهم لصالح الاستعمار ، بيد أن هناك أولوية لا تقل شأنًا عن دعوة عناصر جديدة إلى الإسلام ، ألا وهي : العمل من أجل العودة بالأغلبية المسلمة إلى حظيرة دينها ، وتنقية العقيدة من الشوائب ، وغربلة المفاهيم الخاطئة ، وإنقاذ المسلم من المعاناة الروحية والارتباك في الولاء .

لا يجهد الزائر للسنغال ملاحظة اهتزاز مواقف المسلم السنغالي من جراء عوامل داخلية وخارجية ، يحمل بعضها سمة قيم مجتمع تقليدي أخنى عليها الدهر ، أما بعضها الآخر فقد نجم عن طغيان المادة وسيطرة نمط الحياة الأوروبية بفعل رسوبات الاستعمار ، فخلف كل ذلك عقلية تجعل المسلم السنغالي يرضى بازدواجية الانتماء وثنائية الولاء ، إذ كان أمامه خياران :

إمّا أن يستكين للانصهار والذوبان في بوتقة الحضارة الغربية النصرانية التي تمحو هويته الإسلامية ، ويضيع في خضم الثقافة المادية الماجنة ؛ وإمّا أن يرضىٰ بالإسلام دينًا ويلتزم بما يترتب على ذلك من أمور ؛ ويعتبر هذا من مشكلات الإسلام والمسلمين في السنغال .

على أننا لا نعتقد ، أنها في كل صورها وألوانها وأبعادها خصائص ينفرد بها مسلم السنغال ، بل هي قاسم مشترك بينه وبين إخوة له في عدد من الأقطار الإسلامية الممتدة من جناحها الغربي ؛ السنغال ، إلى ما وراء إندونيسيا شرقًا ، إذ قلما يخلو بلد من بلاد المسلمين من بعض ما يعانيه هذا البلد الأفريقي ، سواء تعلّق الأمر بالحقل السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي .

وفيما يخص السنغال ، هناك بصيص من الأمل ، بل هناك أمل كبير في أن يتم تصحيح الأوضاع بما يرضي الإسلام - إن شاء الله تعالى - وذلك بفضل الصحوة الإسلامية المباركة التي ظهرت طلائعها في الأفق ، والتي يسندها جو من الحرية السائدة في البلاد . ●●

عبد القادر محمد تسليمنك سيلا

الفصـــل الأول

المعطيات الجغرافية والبشـــريّـــة

[١] الموقـــــــع

تقع جمهورية السنغال في أقصى نقطة من غربي القارة الأفريقية بمنطقة « بين مدارين » بين درجتي عرض شمالاً ١٢,٣٠ درجة و ١٦,٣٠ درجة ، وبين درجتي طول ١١,٣٠ درجة و ١٧,٣٠ درجة .

[٢] المساحة والمنـــاخ

تبلغ مساحة السنغال : (١٩٧,١٦٧) كيلو متراً مربعاً .

والبلاد عبارة عن سهول منبسطة تقل فيها التضاريس باستثناء مرتفعات « كيدوغو » "KEDOUGOU" وهضبات : تياس "THIES" .

ووقوعها في منطقة « بين مدارين » جعلها ذات مناخ متنوع حيث تتميز المناطق الداخلية بارتفاع كبير في درجة الحرارة التي تصل أحياناً إلى (٤٠) درجة مئوية ، في حين تتمتع المناطق الساحلية - وبالأخص إقليم الرأس الأخضر حيث تقع العاصمة - باعتدال نسبي في درجة الحرارة إذ تتراوح ما بين ١٧ و ٢٥ في فترة ما بين ديسمبر ويونيو .

ويمتاز فصل الصيف بهطول الأمطار ابتداءً من شهر يونيو إلى شهر أكتوبر ، وتتناقص كمية الأمطار كلما ابتعدنا من الجنوب نحو الشمال ، والشمال الغربي اللذين هما في طريق التصحر .

وتنقسم البلاد إلى مناطق طبيعية أساسية :

* منطقة حوض السنغال .
* منطقة « فيرلو » "FERLO" وتقع في الوسط الشرقي .

* منطقة الوسط الغربي .
* منطقة الشاطىء ونياني "NIANYES" .
* منطقة كازامنسا "CASAMANCE" .
* منطقة السافان "SAVANE" .

[٣] الأنهـــار

يعتبر نهر السنغال من أكبر أنهار البلاد ، إذ يبلغ طوله (١,٧٥٠) كيلو متراً ، ينبع من « غينيا » ، ويجتاز « مالي » حيث رافديه « بافين - BAFING » ، و « باكوي - BAKOI » ونهر السنغال صالح للملاحة في بعض أجزائه في بعض فصول السنة .

* ويأتي بعده نهر « كازامنسا - CASAMANCE » البالغ طوله (٣٠٠) كيلو متر ، ويصلح للملاحة طول السنة .
* ونهر غامبيا : ويبلغ من الطول (١,٠٥٠) كيلو متر ، ولا يعبر السنغال إلاّ قسم يسير منه . إلى جانب هذه الأنهار يوجد « سين » و « سالوم » وهما ساعدان للمحيط الأطلسي .

ويطل السنغال على المحيط الأطلسي بحوالي (٥٠٠) كيلو متر .

وموقعه الاستراتيجي جعله الباب الأمامي لأوروبا نحو غربي أفريقيا وأمريكا الجنوبية .

[٤] الحـــدود والســـكان

يحد السنغال شرقاً : مالي ، وغرباً : المحيط الأطلسي ، وجنوباً : الغينيتان [كونكري وبيساو] وشمالاً : موريتانيا .

(أ) الســـــــكان :

أ ـ يبلغ تعداد سكان السنغال ستة ملايين نسمة [١٩٨٢] نسبة الشباب منهم ٥٢٪ كما توجد نسبة عالية من غير السنغاليين [مليون تقريباً] على رأسهم الجالية الموريتانية واللبنانية ، ثم المهاجرون من مالي والرأس الأخضر .

(ب) التمثيل الســـكاني من حيث الانتمـاء العرقي والديني :

يتركب الشعب السنغالي من جماعات متساكنة من عهود عريقة في القدم ، لكنها جماعات لم يكن يجمعها وحدة سياسية أو لغوية ، بل احتفظت كل جماعة باستقلالها السياسي ومقوماتها الثقافية وقيمها الأخلاقية ، ويمكن ملاحظة تلك الفروق حتى يومنا هذا .

على أن مما يثلج الفؤاد أن ظروفاً موضوعية في طريق التوفير لتكوين وحدة وطنية تسمح باندماج مختلف العناصر التي يتشكل منها الشعب السنغالي ، وذلك بفضل سهولة المواصلات والاتصالات وانتشـار الإسلام ، موحد الشعوب . ومن نتائج هذه العوامل أن إحدى الجماعات العرقية ولغتها سيطرتا على الساحة السنغالية منذ قرن تقريباً ، فساعد ذلك على تجانس الشعب ، وقضى إلى حد بعيد على التنافر القبلي السائد في مناطق عديدة من القارة الأفريقية . علاوة على أن الجماعات العرقية أو اللغوية لا قيمة لها ، حيث لا تتعدى اللغات المحلية ـ وهي تعكس عدد الجماعات العرقية ـ سبعاً ، من بينها : أربع لها أهمية باعتبار تعداد الناطقين بها .

أهم الجماعات اللغويـــــة

(أ) جمـاعــــة « أولـــوف » "OULOF"

وهي أكبر وأهم جماعة في السنغال ؛ إذ تستقطب أكثر من ٤٠٪ من مجموع السكان ، وكان موطنها الأصلي الشمال الغربي والغرب والوسط الغربي من البلاد ، وتوجد بكثرة في المراكز الحضرية . وتفوق لغتها أية لغة أخرى ـ حتى الفرنسية التي هي اللغة الرسمية والإدارية ـ من حيث الانتشار .

تشتغل جماعة « أولوف » بالزراعة والتجارة ، وتحتفظ بأكثر الوظائف في القطاعين العام والخاص ، وأكثر من ٨٠٪ من الوظائف العليا في الجهازين الإداري والسياسي في الدولة .

وقد انتشر الإسلام بين هذه الجماعة من تاريخ قديم جدًا ، لكنه لم يعمَّ مختلف فئاتها إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي . وتنتمي غالبيته « أولوف » إلى التجانية[1] والمريدية وبينها عدد ضئيل لا يزال متمسكاً بالقادرية .

(ب) جمـاعــــة « الســـــرير » "SERERE"

تقطن مع جماعة « أولوف » في عدد من الأقاليم ، لكنها تتمركز بالدرجة الأولى في الساحل الغربي والوسط الغربي ، وتتعاطى الزراعة ، ولم ينتشر الإسلام بين أفرادها إلا منذ عهد قريب نسبياً ؛ وقد وجدت

---

(١) تكمن أهمية تحديد انتماء الجماعات إلى الطرق الصوفية في أنه يساعد ـ إلى حد بعيد ـ على معرفة سلوك وممارسات هذه الجماعات من خلال الطريقة التي ينتمون إليها .

النصرانية بعض الأتباع من « السرير » ، كما لا تزال المعتقدات التقليدية حية فيها ، ولها أتباعها وكهنتها ، لكنها تلفظ أنفاسها الأخيرة أمام تقدم الإسلام . وينتسب مسلمو « السرير » إلى الطريقة التجانية والمريدية .

(ج) « بـول وتكلـور » "PAUL"

الـ « بول » أو فلاتة ، رعاة أبقار غير متمركزين بعدد وافر بإقليم بعينه ، وتميل بشرتهم إلى البياض ، وملامحهم وسيمة يشبهون الإثيوبيين . دخل الفلاتيون الإسلام من عهد بعيد ، غير أن طائفة « توكلور » ـ وهي تتكلم بلغة « بولار » مثل : « بول ـ الرعاة » تسكن أصلًا حول ضفاف نهر السنغال ، وبالأخص في القسم الغربي منه ، وقد أسلمت قبل وصول المرابطين المنطقة ، وأدت دورًا هامًا في نشر الإسلام في المناطق المجاورة لها ، وتشتغل بالزراعة ، وبفعل جفاف شمالي السنغال هاجر عدد من أفرادها إلى مناطق أخرى . وينتمي حوالي ٩٠٪ من التوكلور والبول إلى الطريقة التجانية .

(د) جماعـة « جـولا » "DIOLA"

توجد « جولا » في جنوبي السنغال المعروف باسم « كازامنسا ـ CASAMANCE » . وتتعاطى الزراعة ، وخصوصًا زراعة الأرز ، وتم إدخالها في الإسلام على يد جارتها « ماندنكي » ، وتبلغ نسبة الإسلام بينها ٧٠٪ على أن الإرساليات التنصيرية بدأت تبذل جهداً كبيراً لنشر النصرانية بين ظهرانيها ، وخصوصًا في مقاطعة « ووسوي ـ OUSSOUYE » ومنذ فترة قريبة ، بدأت جهات إسلامية سنغالية تهتم بالمنطقة لنشر الإسلام فيها ، ومنافسة البعثات الكاثوليكية والبروتستانية . وتنتمي هذه الجماعة إلى الطريقة القادرية وبدأت التجانية تشق طريقها نحوهم .

(هـ) جماعـة ماندنيكي « MANDINKE "
وجاخانـكي " DIAKHANKE " وبامبـارا " BAMBARA "

لا تتجاوز نسبة هذه الجماعة ٧٪ من مجموع السكان ، يقطن معظمها في جنوبي وشرقي البلاد . وتتعاطى الزراعة والتجارة ، ويعود إسلامها إلى عهد إمبراطورية مالي ، وتنتسب أغلبيتها إلى الطريقة القادرية .

(و) هناك مجموعات عرقية ولغوية متميزة تحتل مراكز دنيا من حيث عدد أفرادها لكن بعضها يؤدي دورًا لا يستهان به في مجال التجارة كجماعة سراخولي "SARAKHOULE" وتقطن في أقصى الشمال الشرقي من السنغال ، ولها ماضٍ مجيد في الإسلام حيث إنها مؤسسة مملكة « غانا » التاريخية في القرونِ الوسطى .

*** الأديـان :**

الإسلام والنصرانية والمعتقدات التقليدية .

وقد اتضح من خلال هذه اللوحة التي رسمناها لتعكس التشكيلات العرقية ومواطن كل جماعة ونشاطها ونسبة انتشار الإسلام بينها ، أن الديانة الإسلامية تستقطب ما لا يقل عن ٩٥٪ من السكان في الوقت الذي لا يصل عدد النصارى على مختلف نحلهم ومللهم (٢٠٠,٠٠٠) نسمة من أصل (٦,٠٠٠,٠٠٠) نسمة .

وتحسن الإشارة إلى أن النصرانية تجد الأتباع من بين جماعتي : « جولا والسرير » على أنه لا تزال هناك فئة من الجماعتين الآنفتي الذكر تحتفظ بالمعتقدات التقليدية ، فلم يستهوها الإسلام ولا النصرانية اللذان يبذلان قصارى الجهد ـ كل حسب طريقته الخاصة ـ لاستيعاب واحتواء البقية الباقية من أتباع « الأرواحية » ، إلا أن الإسلام يملك في هذا

السباق على جميع الأوراق الرابحة لكسب المعركة ، أضف إلى ذلك أن هذه الفئة في سبيل الانقراض والتلاشي نهائيًا لنفور الشباب من تلك المعتقدات البالية .

الطبقـــات الاجتماعيـــة

الطبقات الاجتماعية ، موضوع الحديث هنا ، لا تعني بالضرورة تفاوتًا في مستوى الدخل ، وليس أساسها غنى وثروة فئة وفقر وحرمان فئات أخرى من المجتمع الواحد .

فمفهوم الطبقة في المجتمع السنغالي ، وفي عدد من المجتمعات في غربي أفريقيا أساسه أصلًا تقسيم الأدوار والمهام داخل المجتمع الواحد .

ونظرًا للتحديد الدقيق لتلك الأدوار برزت حدود وأسوار لا سبيل لتخطيها بين أفراد المجتمع الواحد نتيجة تباين مناهج حياتهم ، وهكذا وجدت طبقة المحاربين والحدادين والنسّاجين والصيّادين والعبيد . . . كل فئة تقوم بمهمة في المجتمع تختلف عن مهام طائفة أخرى .

وتختلف أسماء هذه الفئات الاجتماعية من جماعة لأخرى ، لكن تتفق تقريبًا على وجود الطوائف التالية :

* طبقة النبلاء ، وتتألف من الأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة ، وتقوم بأعباء السلطة السياسية .
* طبقة الأحرار ، وتشمل الفلاحين والمشايخ ، وعامة الشعب ويطلق عليها لدى بعض الجماعات « بادولو » "BADOLO" وتعني : الفقراء والمستضعفين . . .

* طبقة الحرفيين ، وتشمل طوائف عديدة : نساجين ، صيادين ، إسكافيين ومغنين . . .
* طبقة العبيد ، وهي على نوعين : عبيد الملك ، وعبيد آخرين ، حيث إن الأولين باعتبارهم ركيزة عرش الملوك ليسوا مملوكين إلا بالاسم .

على أن تقسيمات ثانوية تحصل داخل بعض الفئات لا محل للتعرض لها هنا .

ومع مرور الزمن اختفى الأصل المهني لهذه الفئات ، فأصبحت حقائق اجتماعية لها وقعها في تصرفات الأفراد والجماعات وعلاقاتهم .

ورغم التطور الحاصل في عقلية السنغاليين ، فلا تزال هذه الفروق حقيقة اجتماعية معاشة ، وخصوصًا في الأوساط المحافظة وبالأخص منها في الريف ؛ فلا تقبل طبقة الأحرار مصاهرة طبقة الحرفيين مثلًا .

وتجدر الإشارة إلى أن الاستعمار الفرنسي استعان بالطبقات الاجتماعية الدنيا لتحطيم الطبقات العليا التي قاومته ، وذلك لإهانتها على يد الطوائف التي كانت مهانة من قبل .

المعطى الاقتصـــادي

السنغال دولة زراعية أساسًا ، وزراعتها تقليدية تقادم عهدها حيث تتمحور على قوة عضلات الفلاح دون تدخل المحراث التقليدي ؛ فضلًا عن الأدوات الميكانيكية المتطورة !! ويعد ذلك أحد أمراض البلاد المزمنة .

وإذا كان الاكتفاء الذاتي أساس الاقتصاد السنغالي قبل عهد الاستعمار ، فإن الإدارة الأجنبية لم تغير شيئًا ذا قيمة كبيرة ، فلم تتطور

زراعة المواد الغذائية الاستهلاكية بل تم تشجيع إنتاج الفول السوداني المهيأ للتصدير ، وفي الوقت ذاته أهملت المحصولات الأخرى ، ولم يتزامن ذلك كله مع صناعات متطورة ومتنامية .

على أن هناك بعض المصانع ، وخصوصًا في إقليم الرأس الأخضر الذي يتمتع بعدد كبير من المصانع مما جعله في الصف الأول من المناطق الصناعية في غربي أفريقيا .

أما جوف الأرض فيحتوي على بعض الثروات المعدنية التي لم يُستغل أكثرها مثل : الفوسفات ، الحديد ، المرمر ، الذهب .

كما تتمتع البلاد بثروة سمكية هائلة ، ويشتغل ١٠٪ من السكان بصيد الأسماك .

التـــــراث الثقافـــــــي

تبعًا لتغاير أصول ولغات وتاريخ الشعوب المتساكنة في السنغال ، فإن الحديث عن التراث الثقافي في هذا البلد متشعب ، غير أن مما يسهل المعضلة وجود تشابه ملحوظ بين مختلف ألوان التراث الثقافي لهذه الشعوب ، فضلًا عن الاتجاه القوي نحو توحيد وسائل التعبير عن هذه الثقافة منذ زمن ؛ وذلك لتدخُّل عوامل سبقت الإشارة إلى بعضها حين الحديث عن التركيب السكاني .

وتتميز هذه الثقافة بالشفوية ، أي : أنها لم تدون ؛ إذ لم تدخل الكتابة إلى السنغال إلا بعد انتشار الإسلام ، فأغلب ما تمت كتابته كان باللغة العربية أو باللغات المحلية بالحروف العربية ويغلب عليه طابع الإسلام .

وتحتل القصص والأمثال والشعر والأغاني والموسيقى وآلات الطرب مركز الصدارة .

ويعتبر فن القصص أهم مقومات الأدب الشعبي . والتراث القصصي عبارة عن أساطير وأقاصيص تقوم الحيوانات بدور الأبطال فيها ، وتتقمص دور الإنسان ، وتتصرف تصرفاته ، وتتكلم بلسانه ؛ داخلة في خفايا نفسه ، منتقدة تارة المجتمع ، وحاثَّةً طورًا آخر على عمل الخير ومكارم الأخلاق والرفق بالأيتام والضعفاء ، وتنتهي الأقاصيص بالعبر والحِكَم ، وقد تأثر بعض هذه القصص بالإسلام فأصبح يستعير منه لونه ومادته .

وكان ولا يزال حتى يومنا هذا ، خصوصًا في الأرياف ، يتحلق الرجال والنساء والولدان حول ضوء النار ، يوقدونها للمسامرة ، وخلالها يستمعون إلى القاصّ يحكي لهم أقاصيص وأساطير شيقة تخلب الأفئدة ، وتستحوذ على مجامع القلوب .

وإلى جانب الأقاصيص تحتل الملاحم درجة عالية في التراث الشعبي ، وتدور غالبًا حول شخصيات تاريخية حقيقية أو أسطورية .

وتعد ملحمة « محمد تشام » بلغة « بولار » أغزر وأغنى ملحمة في هذا الباب ، فهي تروي حياة ومعارك المجاهد « عمر الفوتي » ؛ وكان المؤلف قد شارك شخصيًا في جميع حملات الفوتي العديدة ، فهي في نظر بعض العارفين لا تقل قيمة عن ملاحم « هوميروس » .

ويعكس ذلك كله تنوع وثراء « الفولكلور » السنغالي الذي يسير في طريق التأصيل والحفظ والثبات . . .

هذا وسيأتي الكلام في فصل مستقل عن اللغة العربية باعتبارها أهم مكونات التراث الثقافي السنغالي .

نبذة عن التاريخ السياسي للسنغال

ليس القصد هنا عقد دراسة مستفيضة عن تاريخ السنغال ، بل الهدف إعطاء فكرة عن الشكل السياسي السائد قبل الاحتلال الفرنسي ، مما يساعدنا على استيعاب الظروف التي اكتنفت انتشار الإسلام .

على أن تاريخ السنغال مرتبط إلى حد ما بتاريخ بعض الأقطار المجاورة له ، مثل : « مالي » التي كانت تسيطر في فترة ما على أجزاء شاسعة من غربي أفريقيا ، ومناطق من شرقي وجنوبي السنغال ، ولابد أن يعترف الدارس أنه ما كانت هناك وحدة سياسية حقيقية بين الأراضي التي يطلق عليها اليوم اسم السنغال ، وإنما كانت مقسمة إلى دويلات لا تجمعها إلّا صلات واهية ، وأهم هذه الوحدات السياسية هي :

* مملكة جولوف « DIOLOF :

تقع جولوف في الوسط الغربي من السنغال ، وتقطنها جماعتا « أولوف » و « بول » - فلاتة - وكانت أقاليم عديدة تابعة لها ثم انفصلت عنها بسبب اضطرابات داخلية ، وعاصمتها « يانغ - يانغ » "YANG-YANG" ويحمل ملكها لقب « بوربا » "BOURBA"

* مملكة « والو » "WALO" :

وتقع في منطقة الفيضانات ما بين مدينتي « بودور » "PODOR" و « أندر » "N'DAR" ، وتقطنها جماعة « أولوف » أساسًا وكانت عاصمتها « أندير » "N'DER" .

وقد كان الفرنسيون يدفعون لها إتاوة منذ استقرارهم بمدينة « أندير » سنة ١٦٥٩م إلى أن تم ضمها إلى المستعمرات الفرنسية عام ١٨٥٦م .

* مملكة « كاجور » "CADIOR" :

وتحتل سهلًا واسعًا بين المحيط الأطلسي وأقاليم « جولوه » و « سين » و « سالوم » وكانت لامباية "LAMBAYE" مقرًّ بعض ملوكها .

كانت تسكن هذه المملكة بصفة أساسية جماعة « أولوف » وكانت مسرحًا لمعارك عديدة في القرن التاسع عشر ضد الاستعمار إلى أن سقطت بيده عام ١٨٨٦م .

* فوتا تورو – الإمامة – "FOUTA-TORO" :

تقع فوتا على ضفاف نهر السنغال ، وتمتاز عن غيرها من المناطق السنغالية بأنها عرفت الإسلام قبل سواها ، وقامت فيها أول حكومة إسلامية تطبق شريعة الله تعالى .

فبعد فساد وانحلال نظام « ساتيك »(٢) قامت حركة مباركة بقيادة « سليمان بال » و« عبد القادر كان » ، فأطاحت بحكم الاستبداد .

وكان من محاسن نظام الإمامة أنه قام بنشر الإسلام ورعاية المساجد وتشجيع مجالس العلم . ويحسن أن يُسجل هنا بكل اعتزاز ما كتبه أحد المستعمرين المعاصرين للإمامة وهو « بيتيون » "PETION" بخصوص تحريم أئمة « فوتا » ممارسة النخاسة في مملكتهم باعتبار ذلك منافيًا لمبادىء الإسلام « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا ؟ » فقد كتب « بيتيون » : « رفض الإمام - ملك بول - هدايا الشركة ، محرمًا بيع رعاياه ، ومانعًا مرور قوافل العبيد » .

وفي الحقيقة حملت « فوتا » أمانة نشر الإسلام في الأقاليم المجاورة

---

(٢) ساتيك : اسم النظام السائد في « فوتا » قبل حركة المسلمين الهادفة إلى تصحيح الوضع .

لها ، وهي التي أمدت السنغال كذلك بأهم رجالاته الدينية والفكرية منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى الربع الأول من القرن الحالي ، أمثال : عمر الفوتي ـ ١٨٦٤م ، مابا جاخو با ـ ١٨٦٧م ، مالك سي ـ ١٨٢٢م ، أحمد بامبا ـ ١٩٢٧م .

* ممالك كازا منسا :

وتعتبر جماعة « بينونك ـ "BAINONKE" ـ وهي في طريق الانقراض ـ أقدم سكان جنوبي السنغال ، ومؤسسة مملكة كازا مانسا . وقد قامت جماعتا « ماندينكي وجولا » باحتوائها .

أما جماعة « جولا » فلم تشتهر بمؤسسات سياسية منظمة ذات قيمة تاريخية تستحق الذكر ، في حين شيدت جماعة « ماندينكي » في إطار إمبراطورية مالي أو خارجها ممالك في « كازا منسا وغامبيا ونياني و نيومي و وولي » وكانت قد جاءت بالإسلام من مالي ، وبطول العهد ضعف عندها الوازع الإسلامي ، وظهرت لدى أمرائها المعتقدات التقليدية الأرواحية .

والقاسم المشترك لهذه المؤسسات السياسية كلها باستثناء نظام الإمامة في « فوتا تورو » أن صلاحيات ملوكها كانت في الأساس ضيقة ومحدودة ، ومع مرور الزمن اتسع نطاقها حتى أصبح نظام طغيان واستبداد ليصل إلى ذروته مع طلوع القرن التاسع عشر .

وهذه الإمارات التي أثبتنا أسماءها ومواقعها نماذج لإمارات أخرى لم نتعرض لها ، كما أنها جميعًا ـ عدا الإمامة في فوتا ـ تطغى عليها الأرواحية كدين رسمي كان يتعايش مع الإسلام .

المعتقدات

لم يكن الإسلام سائدًا في أي إمارة من الإمارات المذكورة ، وإن كان حضوره ملموسًا في جميعها ، حيث كانت الجالية الإسلامية تكوّن كتلة اجتماعية متماسكة مشكّلة جماعة ضغط سياسي هام وعنصر تطور ، وركيزة للإدارة الحكومية .

وتكمن أهمية الوقوف على بعض المعتقدات الأرواحية في أنه يساعد على فهم عقلية المسلم السنغالي الحالي ، وتعليل بعض مواقفه وتصرفاته التي قد تتنافى مع مبادىء الإسلام ، فهي مواقف وتصرفات يستغربها من يجهل حقائق اجتماعية وتاريخية كانت خلفية لها .

فالإنسان السنغالي ، شأن غيره من الأفارقة ، متشبث بالقيم الروحية ، فقلما يقوم بحركة هامة أو تافهة دون أن تسبقها فكرة دينية . بل الأمر كما قال « دولافوص » "DELA FOSSE" : « لا وجود لأية مؤسسة في أفريقيا السوداء ، سواء أكانت في الميدان الاجتماعي أو السياسي ، بل حتى في مجال النشاط الاقتصادي ، لا تنبني على تصور ديني ، أو لا يكون الدين حجر الزاوية فيها . فهذه الشعوب التي يستنكر أن يكون لها دين هي ، في الواقع ، من بين الشعوب المتدينة على وجه الأرض »[٣] .

الأرواحية L'ANIMISME

الأرواحية هي الاعتقاد بقوة روحية في الأشياء ، أي : اعتقاد أن

(٣) « أديان أفريقيا السوداء » : ديشام DE SCHAMPS .

للأشياء أرواحًا مشابهة لتلك التي لدى الإنسان .

ويعتقد أتباع الأرواحية أن الروح هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في آنٍ واحد . وتهدف العبادة عند معتقديها إلى تزويد الحياة البشرية بمدد من القوة ، وضمان بقاء الإنسان لأطول مدة . أما المرض والإعياء والفشل . . . فأعراض تدل على نقص القوة الحية .

وتتركب أهم عناصر تلك المعتقدات من :

* إلٰه سامٍ خالق للأكوان ، بعيد عن العالم الأرضي ؛ مما حمله على إنابة الكهان عنه !!
* آلهة من درجة دنيا ، وهي مندمجة في قوة الطبيعة .
* أجداد الجماعات ، وهم بمنزلة الأرباب .
* قوة خفية تتمثل في التعاويذ والتمائم .

ويعيش المعتقد بالقوة الحيوية في محيط تؤطره الغيبيات في مختلف أكناف حياته ، وتدفعه عقيدته إلى اعتبار العالم المحيط به ألغازًا غامضة وأسرارًا دفينة لا يتطاول إلى كشف كنهها إلا عقول خاصة لها استعداد خاص لتلقيها من « اللامرئي » . . .

لا أمن ولا سلامة لغير الموهوبين الذين رؤيتهم معتمة ، ولا مندوحة لهم إلا الالتجاء إلى الكهنة والسحرة ، وإلى الطقوس والقرابين والتمائم والتعاويذ لاستعطاف قوة الطبيعة ، واتقاء شرها ، والتقرب إليها زلفى ، واستدرار رحمتها . . .

وتتمثل المؤشرات غير المرئية في أرواح الجدود ، ضامنة استمرارية حياة القبيلة أو العشيرة المنتمية إليهم ، وفي أرواح الموتى بصفة عامة ، وفي الطلاسم والتعاويذ التي يصنعها الكهان ، زاعمين أنها ذات فعالية عالية لمقدرتها على تغيير مجاري الأمور الطبيعية وخلق الظروف الحسنة

أو السيئة .

فأساس فكرة عبادة أرواح الأسلاف - التي يُعتقد أنها وسيطة بين الأحياء والآلهة وأنها شفيعة - هو أن الحياة على الأرض لا تتوقف بمفارقة الروح للجسم ، بل هي استمرار سرمدي للفعالية والحيوية ، إذ ليس الموت حدثًا يسبب قطع الصلات بين الأحياء والأموات ، إنما هو غفوة وارتخاء من جراء ضعضعة في القوة الحيوية . . .

على أن غموض الطبيعة وصعوبة فك ألغازها حدا بالإنسان الذي هذا معتقده إلى الاستنجاد بالكهنة طلبًا لتفسير أو تعليل مظاهر الطبيعة ، والارتماء في أحضان صانعي التمائم والتعاويذ ، وجعله متشائمًا ، محاطًا بأنواعٍ لا تحصر من الخرافات تعتّم عليه حياته .

ومن سوء حظ أتباع الأرواحية أنهم لا يضعون فاصلًا بين الروح والمادة ، فالإنسان والموجودات الأخرى ليسوا سوى قوة حية ذات فاعلية تخضع - في اعتقادهم - لمشيئة طبيعة فاعلة . . .

ويكون الوسيط بين الإلٰه والأحياء جدّ الجماعة الأسطوري ، أو تمثالًا أو قناعًا أو حجرًا أو حيوانًا أو شجرًا ، أو أي مظهر آخر من مظاهر الطبيعة ، ويتباين دور الآلهة الوسطاء وعددهم وأهميتهم من منطقة لأخرى ، ومن جماعة لجماعة ثانية . . .

وتعتبر عبادة الحيوانات من أقدم العبادات المعروفة في غربي أفريقيا . فلدى بعض الجماعات في السنغال - قبل إسلامها - اعتقاد مفاده أن الجماعة ونوعًا من الحيوان من جرثومة واحدة . ونجد بقايا هذا الاعتقاد ليومنا هذا لدى بعض القبائل السنغالية المنحدرة من إمبراطورية مالي . فقد جاء في سيرة حياة الكاتب الغيني « لاي كامارا » "LAYE KAMARA" أن والده قال له ذات يوم : « هناك حية حاضرة دائمًا تظهر لأحد أعضاء

عشيرتنا . فقد ظهرت لي في جيلنا هذا » ، وبعد أن شرح الوالد لابنه كيف تم لقاؤه مع جنية عشيرته قص عليه الحوار الذي دار بينهما ؛ حيث قالت له الحية : « قدمت ، كما نبهتك سابقًا لكنك لم ترحب بي ، بل لاحظتك وأنت تتهيأ لأسوأ استقبال لي ، فقد لمحت ذلك في عينيك ، لماذا تنظر إلّي هكذا ! ؟ أنا جنية أجدادك ، وبصفتي كذلك قدمت نفسي إليك لأهليتك . إذن لا تخف مني ؛ واحذر من طردي فإنني جالبة لك النجاح »[٤] .

وتحت وابل من الأسئلة وإلحاح شديد من « لاي كامارا » الذي كان طفلًا صغيراً رأى أباه يداعب حية صغيرة الحجم ذات مساءٍ ، حكى عليه القصة ، وهي على جمالها تعكس جانبًا واقعيًا من حياة هذه الشعوب التي اعتنقت الديانة الإسلامية منذ عهود قديمة وظلت تحتفظ ببعض بقايا معتقدات مجتمع ما قبل الإسلام .

يرتبط الحيوان بالإنسان بالعهود ، ويتحاور معه ، ويساعده على تذليل الحياة ، مقابل تقديمه وتنظيم طقوس له . فهو يجسّد جنية العشيرة ، فقتله أو مسّه بأذًى يجلب المصائب والنوائب للفرد والجماعة معًا ، بينما استرضاؤه يؤدي إلى الرفاهية والنجاح ، فوق ذلك كله فليس الحيوان أخرس ولا أعجم بل له لغة يتفاهم عن طريقها مع خواص الناس ، ويعقد عهودًا ومواثيق تبقى سارية إلى أبد الآبدين . . . في زعمهم .

ولم تكن الحيوانات وحدها محل عبادة وتقديس لدى معتقدي القوة الحيوانية وإنما يعبدون بعض النباتات والمعادن .

يحتوي الشجر على روح فعالة ؛ فإنه ـ عند اجتثاثه ـ يجب استرضاؤه

(4) LAYE KAMARA : "L'ENFANT NOIR" 14,16 et 17

بالقرابين والأدعية ؛ خصوصًا إذا كان دوحًا وذلك قصد إبطال رد فعله ، وتتصرف الجنُّ في المعادن تمنحها لمن يتخذها أولياء وأخلاء ، وتمنعها عمن لا يسترضيها .

والمعدن بحد ذاته كائن حي يستطيع أن ينفع ويؤذي . وبقصد اتقاء شره ينبغي لطائفة الحدادين أن يكون لهم استعداد تام لمواجهته ، فهم لذلك يتسلحون بالأسرار والأدعية يخيفون بها القوى المعادية في المعدن .

وكذلك يتحصن الصيادون ـ في البر والبحر ـ بالأدعية تقيهم من شر فرائسهم ، وكان كبار الصيادين من أمهر وأكبر الكهنة والسحرة .

الطقوس وأماكن العبادات

تتركب الطقوس من عناصر عدة ، منها : الرقص على إيقاعات الطبول ـ تم ـ تم ـ والغناء الذي يستغرق جزءًا هامًا منها ، ثم القرابين التي تقدم إلى أرواح الجدود في مناسبات عندما يصيب المرض أحد أفراد الأسرة ، أو حين يستعد الفلاح للبذر ، أو حينما يحل موسم الحصاد ، أو يلمُّ بالبلاد جفاف ، ففي هذه المناسبات يتقرب الأرواحيُّ بدجاج أو غنم أو بقر فيذبحه على قبر أسلافه .

وتعد ثمرة « الكولا KOLA »[٥] مقدسة ورمزًا للاحترام ، وتقدم حتمًا في الحفلات الدينية ، وقد تأثر المسلمون بهذه العادة فأصبحت عنصرًا هامًا في حفلاتهم في السنغال .

(٥) الكولا : البندق الأفريقي ، يعتقد كثير من علماء السنغال أنه هو الطنبول ـ وكذلك علماء غربي أفريقيا عموماً ـ وهو خلاف ذلك ، ولقد استعملنا الكلمة الأجنبية لشهرتها .

وهناك ممارسات معقدة وشائكة تقوم بها فئة من الكهنة ، فضلًا عن أن الطقوس متشعبة ومتعددة ، لا قانون محدودًا يربطها ، حيث تختلف شعائر شعب عن آخر ، وجماعة أو منطقة عن أخرى ، بل حتى بين قريتين متجاورتين ؛ ونتيجة لفقدان ضوابط لها ، وخشونة بعض مظاهرها وتعددها ، وعدم هيمنة واحدة منها فإنها أصبحت تلفظ أنفاسها الأخيرة أمام قوة الإسلام موحد الشعوب .

وما استطاعت الأرواحية ـ إلا نادرًا ـ تأسيس هياكل للعبادة ، إذ غالبًا ما يكون المعبد عبارة عن محراب صغير ، أو زاوية في بيت رئيس الأسرة يمارس فيها أفرادها شعائر الأرواحية . وقد يكون ضريح زعيم الجماعة موضح تقديس حيث تصب عليه الألبان والمياه وتذبح عليه القرابين . . .

ظاهرة الخوف من الطبيعة والسحر والسحرة

تتكون تصورات المجتمع التقليدي السنغالي ومدركاته من تجارب كثيرة ، منها : تلك التي تأتي من العالم المرئي ، أي : من ظواهر الطبيعة المباشرة . فليست الطبيعة مجرد مادة ترى وتلمس وتحس بل وراءها قوة فاعلة متحركة ومحركة تتصرف في مجارى الأمور[٦] يخضع لها الإنسان ويرتبط بها ارتباطًا لا فكاك له ، فرخاء الهيئة الاجتماعية وسلامة أعضائها وحياة كل فرد خاصة أو عامة من صحة ومرض ونجاح وفشل وسعادة وشقاء تتوقف على التأثيرات الطيبة أو السيئة الآتية من العالم غير المرئي . وهم لذلك لا يرون أملًا للوصول بمشروع من مشاريعهم إلى مرافيء النجاح إلا إذا أمنوا شر قوى الطبيعة التي تطاردهم وتلاحقهم

(٦) حبذا لو اعتقدوا أن هذه القوة للرب الواحد الأحـد .

ولا تدعهم يتنفسون لحظة .

وسوف نرى أن الخوف من ثوران الطبيعة ، والعمل على ابتغاء مرضاتها ، والتحصن ضدها لم يختف في السنغال رغم انتشار الديانة الإسلامية بين ظهراني أهله .

السـحر في مفهوم الأرواحـيين

والسحر في مفهوم الأرواحيين نوعان :

[١] سحر أبيض نافع ملتمس يذب الأرواح الشريرة والأشباح الحوامة في جنح الليل ويجلب الخير والسعادة والبناء والمنفعة والازدهار ، ويزيد في دخل الفرد والجماعة ، وكثيرًا ما يستعان به لمعرفة مدى نجاح مشروع ما ، كالسفر أو الزواج ، أو كشف نوع المرض ، وتحديد الوصفة الملائمة لعلاجه . . .

[٢] سحر أسود ضار[٧] بغيض يفتك بالنفوس ، وينشر الأمراض والأوبئة ويفسد الحرث والنسل ويتسبب في إمساك الأرزاق . . .

وتستعمل عدة صيغ وأصول للوصول إلى نتيجة للنوعين .

يحصل الساحر على أجوبة عما يطرح عليه من مسألة بواسطة أدوات خاصة وتقنية يملك سرها (!!) على أنه يقوم باستقراء المعطيات والإشارات ، ويفسر الرموز ، ويفك الألغاز ليركب في النهاية المعضلة المطروحة أمامه ، فيعطي جوابه عنها ، ولا تقف مهمته عند هذا الحد ،

(٧) تجدر الإشارة إلى أن الاعتقاد بالسحر ـ وخصوصًا بمصاصي الدماء ـ منتشر بموريتانيا . وبصفة عامة يعتقد بعض الناس هناك أن كل « الكور » أي : السود من صنعة السحر ، وأنهم من مصاصي الدماء .

بل يتولى العلاج إن كان الأمر يتعلق بمرض ، وهو عبارة عن تمائم وتعاويذ تتركب من قشور وعروق أشجار معينة أو أعواد وقرون . وقد يكتفي الساحر بنفثات في العقد ، ويعلق المريض الحجاب بعنقه أو بمرفقه أو بأي جزء آخر من جسمه وقد يدفن بعضًا من ذلك في أماكن يعيّنها الساحر .

ويتنوع مجال نشاط الساحر حيث يعالج مختلف مسائل مجتمعه : على كاهله إنزال المطر إذا ما هدد الجفاف الزراعة ، وإخصاب الأرض ، والتدخل للتخفيف من حدة فوران الطبيعة !! .

كما أن هناك سحرًا نافعًا ، وسحرًا ضارًا ، فيوجد سحرة نافعون طيبون ، وآخرون خبثاء ضارون ؛ فالأولون يساعدون على تذليل مصائب ومصاعب الحياة ، بينما الأشرار مسؤولون عن الوفيات[٨] والأمراض والأضرار التي تصيب المجتمع بصفة عامة ، وهم محل شؤم ونحس ، يفر منهم الناس ويتقون شرهم .

ويعتقد هؤلاء أنه يوجد أشخاص سحرة بدون أن تكون لهم يد في ذلك ، أو سبق إصرار لارتكاب جريمة الإيذاء ، فبعضهم ولدوا سحرة ، ويتهم بالسحر الأطفال ذوو الخلقة المشوهة ، والتوائم ، وذوو العاهات ، والمنحدرون من طبقات اجتماعية مستضعفة . ويبدو جليًّا من خلال الاتهام الموجه إلى طوائف متميزة من المجتمع أن هذه المعتقدات لا ترتكز على أسس ذات معيار علمي وعقلي مقبول .

ومما يؤسف له أن المسلمين رغم كونهم أكثر من ٩٥٪ من سكان

(٨) في تلك المجتمعات لا يموت المرء حتف أنفه ، وإنما وراء كل وفاة أو مرض ساحر ، فهناك إيمان راسخ بوجود مصاصي الدماء ، يمتصون دماء ضحاياهم دون أن يشعر الضحية إلى أن يموت .

السنغال لما يتمكنوا بعد من التخلص من عدد من الخرافات ، كخرافة مصاص الدماء[٩] كما أن صانعي الطلاسم حلُّوا محل الكهنة في المجتمع الأرواحي ، كما سيأتي .

وخليق بالملاحظة أنه في ظلّ الديانة الأرواحية لا يعترض الإنسان سبيل قوة الطبيعة قصد تسخيرها والتأثير عليها وفق حاجاته ، إنما هي التي تؤثر عليه وتوجهه حسب مشيئتها ـ بزعمه ـ وتصونه وترعاه ، أو تبيده وتهمله ، وبديهي أن يعيش معتقد هذه الخرافات في هلع واضطراب دائمين .

وقد وجد الإسلام في السنغال أرضية صالحة : فقد كانت الأنظمة السياسية مستبدة وطاغية لا تحترم قانونًا ولا عهودًا ، وكانت قائمة على

(٩) تجدر الإشارة إلى أن الاعتقاد بالسحر منتشر في مختلف مناطق أفريقيا السوداء ، بل تسرب وأثّر في قرارات القضاء ، ومن ذلك ما قررته محكمة في جمهورية « الجابون » سنة ١٩٦٤ في شأن قضية اعترفت فيها محكمة في تلك البلاد بإمكانية تحول الإنسان إلى حيوان . . وملخص القضية : ادعاء أن رجلًا تحول إلى قرد في إحدى الغابات ، فاصطاده قانص آخر ، وجاء في حيثيات المحكمة ما يلي :
حيث إنه من المعروف لدى الجمهور في « الجابون » أن الأشخاص يتحولون إما إلى فهود أو فيلة . . ليقضوا على أعدائهم ، أو ليحموا حقولهم ويفسدوا حقول جيرانهم . . هذه أمور يجهلها القضاء الأوروبي ، ويحق للقضاء في « الجابون » أن يأخذها بعين الاعتبار !! . .
وحيث يجب الاطلاع على أنه يتم فعلًا تحول الإنسان إلى حيوان مفترس ، وذلك قصد طمأنة فريسته التي ترى الصياد على هيئة حيوان ؛ من أجل إمساكها دون عناء ؛ وحيث إن المحكمة اقتنعت بأن « أكو جوزيف ـ AKOU JOSEPH » قد تحول بمبادرة منه إلى قرد في الغابة حيث يحتمل أن يكون قانصًا دون سلاح ، ونتيجة لذلك فإن بيكو (قاتل الإنسان القرد) من النبلاء . . . وما كان يمكن أن يطلق النار في واضحة النهار على رجل لا وجود لأية عداوة بينه وبينه .
RENE DU MONT "AFRIQUE NOIRE EST MAL PARTIE". P 250

استفزاز الفلاحين واستغلالهم ، وتجريدهم من أقل مقومات الاستقرار والأمن ، وكانت تلك الإمارات تمارس معتقداتها الأرواحية ، وهي أديان مشتتة ، لا صلة تجمع أتباعها ، ولا نظام يقرب بعضهم إلى بعض ، ولا طقوس تتشابه . . . وعندما لاح نور الإسلام تداعت أركان الأرواحية ، ولا تزال تتقهقر .

الفصل الثاني

طرق انتشار الإسلام في غربي أفريقيا

(أ) الإرهاصـــات الأولـــى :

ظهرت الدعوة الإسلامية في بداية القرن السابع الميلادي بقلب الجزيرة العربية في فترة من التاريخ كانت البشرية فيها بأمس الحاجة إلى رسالة من السماء تنقذ المجتمعات من الانهيار ، وتصفي القلوب من شوائب الشرك ، وتوجه العقول نحو عقيدة الوحدانية ، وكانت الأقطار الأفريقية بعيدة كل البعد عن الحركة الدينية الجديدة ، اللهم إلا ما كان من هجرة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إلى الحبشة [إثيوبيا اليوم] بإيعاز من رسول الله ﷺ : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ؛ حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه »[١٠] .

وقام بعض الصحابة رضوان الله عليهم بهجرتين إلى الحبشة ، وهما هجرتان لم تخلفا أثرًا ذا بال على المجتمع الحبشي ، لأن المهاجرين ـ لأسباب خاصة ـ كانوا يعتبرون لاجئين سياسيين ، كما في مصطلحات العصر الحديث ، فلم تكن هجرتهم من موطنهم نتيجة اقتراف جريمة يعاقب عليها القانون ، بل ابتعادهم من قلة كان لأسباب عقيدية ، وسياسية ؛ لأن الدعوة الإسلامية كانت تهدف أساسًا إلى تغيير القواعد التي تنبني عليها المؤسسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الجاهلي . . .

(ب) انتشار الإسلام في غربي أفريقيا :

إذا كانت الطلائع الأولى من الصحابة رضوان الله عليهم ، لم يتمكنوا من القيام بالدعوة إلى الإسلام في فجر البعثة بأفريقيا ، فإن المسلمين

(١٠) سيرة ابن هشـــــام .

الأوائل عرفوا العالم الأفريقي قبل انتشار الإسلام في القارة الأفريقية . فقد كانت الصلات بين العالمين العربي والأفريقي قديمة وسابقة لظهور الإسلام : فقد كانت جزيرة العرب على صلة اقتصادية ودينية وسياسية بشرقيّ أفريقيا ، ولم يكن الحضور الأفريقي مقتصرًا على العبيد الذين يجلبون من القارة السوداء ، بل كانت للحبشة ارتباطات وثيقة باليمن جنوبي الجزيرة العربية .

لذلك لا يدهشنا اهتمام الإسلام الباكر بأفريقيا باعتباره استمرارًا طبيعيًّا لتلك العلاقات التاريخية وتطورًا حتميًا لها .

على أن الإسلام اختار ـ خلال تقدمه نحو أفريقيا ـ مسلكين اثنين :

* أولهما مائي : وهو طريق باب المندب المحاذي لساحل شرقي أفريقيا ، حين كان المسلمون يعبرون البحر الأحمر للتوجه نحو الصومال والحبشة وزنجبار . . . وكان الاتصال بين هذه المناطق الأفريقية وشبه الجزيرة العربية مباشرة . وتبعًا لذلك كان شرقي أفريقيا متأثرًا في شؤون دينه بمناطق الخليج العربي ، ويتجلى ذلك في انتشار المذاهب الفقهية والطرق الصوفية التي كان يتمذهب بها سكان الجزيرة .

* ثانيهما بري : اتخذه الإسلام للدخول في شمالي وغربي أفريقيا ـ وهو بيت القصيدة هنا ـ وهو معبر سيناء الذي اختاره عمرو بن العاص رضي الله عنه لفتح مصر ، ولما استتب الأمر لجيوش الإسلام بأرض الكنانة تطلعت إلى فتح شمالي أفريقيا ، حيث اتجهت صوب برقة فتونس فالجزائر ثم المغرب ، وتراخت الدعوة في شمالي أفريقيا برهة من الزمن بحكم أنها ظلت هناك بين

مد وجزر ، وما أن استقرت في المغرب حتى بدأت تتبلور في جنوبي الصحراء الكبرى[11] .

(ج) مسالك قوافل المسلمين من شمالي أفريقيا :

كانت هناك عدة مراكز هامة في شمالي أفريقيا ينطلق منها الدعاة المسلمون نحو غربي القارة ، وسيؤدى « المغرب العربي » دورًا طليعيًّا في نشر عقيدة وحضارة الإسلام فيما وراء الصحراء الكبرى ، وسيؤثر أيما تأثير على مسلمي تلك البلاد : فمن شمالي أفريقيا والأندلس جاء وساد المذهب المالكي ، ومنه وفدت الطرق الصوفية : القادرية ، والتيجانية ، والشاذلية ، كما سيأتي بيان ذلك في محله .

أما تحديد تاريخ موثوق به لوصول الإسلام إلى غربي أفريقيا فليس بالسهولة بمكان لعلة بسيطة ؛ هي أن اعتناق غالبية الشعوب الأفريقية للإسلام لم يتم عن طريق حملة عسكرية ليؤرخ له بسقوط مملكة ما[12] ، أو هزيمة جيوش معادية للمسلمين في واقعة ما ، وقيام نظام الإسلام على أنقاضها ، إنما انتشرت الديانة الإسلامية في تلك المناطق بفعل احتكاك التجار المسلمين بسكانها ، وجهود الشيوخ السياح القادمين من شمالي أفريقيا ، وبفضل تفاني الأفريقيين الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام .

على أن التاريخ احتفظ لنا بأسماء مراكز تجارية تقع على الطرف الشمالي من الصحراء الكبرى ، كانت تنطلق منها قوافل التجار المحملة

---

(١١) ويقال : إن بعض السود شاركوا في فتح الأندلس ، وإن القوط أسروا جنديًّا أسود من جنود المسلمين ، وكانوا لم يسبق لهم أن عاينوا إنسانًا أسود ، فسخنوا ماء كثيرًا ورموه فيه ، وجعلوا يحكون بشرته ظنًّا منهم أن سواده ناجمٌ عن صدأ التصق به . . .

(١٢) وتجدر الإشارة إلى أن الإسلام دخل غانا قبل وصول المرابطين إليها وسقوط تلك المملكة على أيديهم .

بالبضائع ـ منسوجات وخرز ـ يقايضونها بالذهب والعاج والعبيد . . .

* وها هي بعض مراكز الانطلاق :

[١] برقة بليبيا : كانت قوافل المسلمين تغادر برقة محملة بالبضائع وتتوجه صوب بيلما "BILMA" حتى تصل منطقة بحيرة تشاد ، وقد تصل القوافل نفسها بلاد برنو "BORNO" .

[٢] القيروان بتونس : كان التجار المسلمون يغادرون القيروان بجمالهم المحملة بمنتجات « أفريقية » إلى « نكيدة » حيث تقع مناجم النحاس ، ومنها تقصد كانو "KANO" في بلاد « الهوسا » بنيجيريا .

[٣] تلمسان بالجزائر : كانت قوافل التجار المسلمين تنطلق من تلمسان إلى ثنية نهر النيجر حيث تقع مدينتا تمبكتو وغاو الشهيرتان .

[٤] طريق لمتونة : وهي الآتية من المغرب الأقصى على امتداد ساحل المحيط الأطلسي إلى حوض نهر السنغال .

ويبدو أن الإسلام سلك الطريق الثالث والرابع للوصول إلى السنغال لارتباط هذا الأخير تاريخيًّا وجغرافيًّا بامبراطوريتي غانا ومالي اللتين كانتا على صلة وثيقة بالجزائر والمغرب ، فضلًا عن أن حركة عبد الله بن ياسن رابطت فترة من الزمن في جزيرة سنغالية قد تكون « أندر N'DAR »[13] .

* مملكة غانا[14]

ليس من السهولة بمكان تحديد موقع غانا جغرافيًّا بشكل دقيق ، إذ يظهر أن كل المؤرخين ـ وهم جميعًا عرب ـ الذين كتبوا عنها في

---

(١٣) هي مدينة تقع في جزيرة من المحيط الأطلسي بشمال غربي السنغال .

(١٤) لا ينطبق موقع جمهورية غانا الحالية على المملكة التي كانت تحمل هذا الاسم .

القرون الوسطى لم يعاينوها ، وإنما نقلوا أخبارها عن غيرهم[15] ، وكادت الروايات الشفهية أن تنسى غانا[16] ويبدو أنها كانت قوية وثرية ارتبطت بعلاقات وثيقة مع بربر الصحراء الكبرى ، وقد تكون حدودها الشمالية وراء مدينة « أودغشت » الغنية بالملح ، وقد يكون بعض أطراف السنغال جزءًا منها .

وكانت تشتمل على جزء هام من موريتانيا الحالية ومناطق من غربي مالي ، وكانت « أودغشت » الواقعة في قلب الصحراء قد احتلتها غانا سنة ٩٩٠م وظلت تحت سيطرتها إلى أن فتحها المرابطون سنة ١٠٥٤م .

وكانت عاصمة غانا هي ـ كومبي صالح ـ القريبة من مدينة نيرو ، وكانت العائلة المالكة تحمل الاسم العشيري « سيسي » "CISSE" وهي من جماعة « سونينكي » ؛ ولم ينتشر الإسلام بين أفراد الطبقة الأرستقراطية الحاكمة غير أن صلتها بالمسلمين كانت قوية .

* الإسلام في غانا :

إن اختلاف التجار المسلمين على بلاد غانا ، وتكاثف التبادل ، والوفود والتسامح الديني الذي كان يتحلى به النظام القائم ، ساعد ذلك كله على تغلغل العقيدة الإسلامية بين الأهالي سلميًا ؛ وبلغ الأمر إلى أن أفرادًا من الجالية الإسلامية تقلدوا وظائف عليا في البلاط الملكي ؛ وكانت معرفة المسلمين بالكتابة والقراءة عاملًا حاسمًا في هيمنتهم على مرافق هامة من جهاز الإدارة العامة والحياة الاقتصادية ؛ وبمرور الزمن ازدادت أهمية الجالية الإسلامية في غانا إلى درجة أن كان لها حي خاص

(١٥) انظر بهذا الصدد كتاب « مونتي L'ISLA NOIR : MONTEIL.P.60 » .

(١٦) يقول المؤرخ « تسير نيان » في كتابه « سون جاتا » : إن غانا كانت تعرف لدى شعب « ماندين » باسم « واغادو WAGADU » انظر الصفحة ٦٢ من الكتاب المذكور .

بها بعاصمة المملكة فيه اثنا عشر مسجدًا .

وظلت غانا محتفظة باستقلالها السياسي إلى أن لاحت في الأفق حركة عبد الله بن ياسن الإسلامية .

* نهاية غانا :

تاق المرابطون إلى فتح مملكة غانا ، فبعثوا أولاً جيشًا بقيادة يحيى ابن عمر سنة ١٠٥٤م ، فاستولى على « أودغشت » وطرد منها الحامية الأفريقية . ومن « أودغشت » توجهت جحافل لمتونة نحو عاصمة غانا « كومبى صالح » .

وكان المرابطون يستهدفون نشر الإسلام في منطقة لم يكن الإسلام معروفاً لأهلها جميعاً في ذلك العهد ، وهذا خلاف ما يزعمه بعض المؤرخين أن لعاب قادة المسلمين كان يسيل لَدَى ذكر ثروة غانا ، حيث ينبت الذهب مثلما ينبت العشب ، فاندفعوا إلى فتحها . وعندما تولى أبو بكر بن عمر زعامة جيوش المرابطين في الصحراء ، نجح في الاستيلاء على « كومبي صالح » سنة ١٠٧٦م .

ويلاحظ أن سيطرة المرابطين على غانا لم تدم طويلاً ، إذ سرعان ما قامت انتفاضات وثورات ، ليست ضد الإسلام الذي جاءت به جماعة أبي بكر بن عمر ، بل كانت تستهدف تحقيق إدارة غانية .

ففي غضون ذلك ، استشهد ابن عمر أثناء اشتباكات مع الغانيين ، وبوفاته اضمحلت سلطة المرابطين السياسية ، في الوقت الذي كان يحقق ابن عمه يوسف بن تاشفين انتصارات باهرة في المغرب والأندلس .

لم تكن انتصارات أصحاب عبد الله بن ياسن ذات بال من الناحية العسكرية والسياسية ، إذ لم يدم وجودهم في غانا أكثر من خمس عشرة

سنة ، لكن هذا الحضور الخاطف ترك أثرًا طيبًا للإسلام في المنطقة كلها لمساهمته في توصيل صدى الإسلام إلى نواحٍ بعيدة من غربي أفريقيا لم يكن قد وصلها من قبل ، مما مهد الطرق أمام دعاة حققوا ما لم تحققه الحملة العسكرية . وخليق بنا أن نلمح إلى أن بعض المصادر تشير إلى أن ملك تكرور « وارانجاي "WAR N'DIAYE" » الملقب بأبي الدرداء قد أخذ نصيبًا وافرًا في حملات المرابطين بعد أن أسلم .

والخلاصة أن حملة المرابطين على غانا لم يترتب عليها ترسيخ مباشر لدعائم الإسلام بقوة السلاح في تلك البلاد ، إنما تمخض عنها أن طائفة من سكان المدن الذين لم يسلموا قبل الحملة المرابطية اعتنقوا الإسلام ؛ إضافة إلى تشبث شعب « سونينكي » بالعقيدة الإسلامية من ذلك العهد إلى يومنا هذا .

ورغم جهود المرابطين ومسلمي غانا بقي الإسلام محصورًا في رقعة جغرافية صغيرة إلى أن برزت مملكة مالي في الساحة السياسية في المنطقة والتي حملت الدين الإسلامي إلى أدغال ومجاهل غربي أفريقيا كله .

* مملكة مالـــي (MALI)[17] :

خلاف مملكة غانا ، ظلت أخبار إمبراطورية مالي راسخة في الذاكرة الجماعية من شعب « ماندين » مثلما نقل أحوالها سياح وتجار العرب والبربر المسلمين الذين جابوا الصحراء الكبرى واتصلوا بأنفسهم بشعوب وأمراء مالي . وتم وصول أخبار هذه المملكة السودانية إلى العالم الإسلامي خلال رحلات ملوكها نحو الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج ، وزيارة مسجد الرسول ﷺ بالمدينة .

(١٧) يبدو أن كلمة مالي تحريف لماندين ، وهذه الأخيرة تعني شعب مالي في لغتها الأصلية .

وكانت مملكة مالي واسعة ؛ حيث تصل حدودها إلى ما وراء « غاو » شرقًا ، والسنغال غربًا ، وسيكاسو جنوبًا ، وولاّتة شمالًا . وينتسب ملوكها إلى جماعة « ماندين أو ماندينكا ـ MANDING » التي تعيش حول نهر النيجر وبالأخص في الجزء الغربي منه ، وشرقي السنغال وجنوبيه ، وعلى ضفتي وادي غامبيا الذي يعتبر واديًا ماندنيكيًا ، وغينيا بيساو ، وغينيا كوناكري ، وبوركينا فاسو ، وساحل العاج وسيراليون . . .

وقد يربو تعداد الناطقين بلغة « ماندين » بغربي أفريقيا على عشرة ملايين نسمة ، وقد انعكس تباعد مساكنهم على لهجاتهم ، لكنها لهجات متقاربة يتفاهم الناطقون بها دونما صعوبة .

ينتمي أربعة وتسعون في المائة من هذه الجماعة إلى الإسلام ، بينما تتمسك فئة منها بالديانات التقليدية الأفريقية ؛ وخليق بالملاحظة بهذا الخصوص أن هذه المعتقدات تحتوي على عناصر عديدة من أصل إسلامي ، الأمر الذي يدعو إلى الاعتقاد بأن الديانة الإسلامية عمت فعلًا شعب ماندين خلال فترة من تاريخه ، ثم تسرب إلى إسلامه التدني والضعف والفتور بفعل انقطاع بعض جماعاته عن موجات التجديد ، وبحكم انعزالها عن الحركات الإسلامية .

وتكمن أهمية جماعة ماندين في أنها قامت بنشاط دائب وحافل طوال عهود عديدة لنشر الإسلام في غربي أفريقيا ، وذلك على صعيدين :

* على مستوى السلطات الرسمية ، [ملوك مالي] .
* وعلى مستوى الأفراد [التجار المتجولين الدعاة « جولا »[18]

(١٨) كلمة « جولا » هذه لا يحسن خلطها بكلمة مشابهة ؛ أعني « جولا DIOLA » التي هي اسم لإحدى الجماعات بجنوبي السنغال ، في حين أن « جولا » التي نحن بصدد الحديث عن دورها في نشر الإسلام بغربي أفريقيا تنتسب إلى جماعة ماندين ، وتتعاطى التجارة أساسًا في نشاطاتها .

DIOULA »] .

يعزى دخول الإسلام إلى بلادماندين إلى حادثة طريفة ، مفادها أنه حوالي سنة ١٠٥٠م أصاب قحط شديد أرض ماندين ، فانقطع المطر وأشرف الحرث والنسل على التلف ، وكانت العادة تقتضي في مثل هذه النازلة أن يتدخل الكهنة والسحرة لاستعطاف الآلهة ، وكان « برا ماندانا BARA MENDANA » أميرًا لماندين وقتئذٍ ، فنهض بنفسه لتنظيم طقوس عديدة ، تم خلالها تقديم القرابين ، فلم يُجْدِ ذلك كله نفعًا .

وكان ينزل في « كانغابا KANGABA » . عاصمة إمارة ماندين ، رجل مسلم لم يشاطر الأمير وشعبه طقوسهم ، ولما لاحظ فشل المحاولات كلها وبطلان الوسائل المستعملة جميعها ، وتمكن البؤس واليأس والأسى من نفوس أهل مالي ، عرض على الأمير مساهمته في التضرع مقابل إسلام « برا ماندانا » فقبل هذا الأخير العرض ، واعتنق الدين الإسلامي ، ثم تعلم ما تيسر له من مبادئه ، ثم خرج الرجلان نحو ربوة تطل على « كانغابا » فصليا صلاة الاستسقاء ، ولدى الانتهاء منها جعل الشيخ يدعو رافعًا يديه إلى السماء والأمير يؤمن . وما كادا ينهيان تضرعهما حتى هبت ريح باردة مبشرة ، وملأت السحب الداكنة السماء مثقلة بالبركة ، فهطلت أمطار غزيرة عمت أرجاء البلاد ، وامتلأت الأودية ، وفاضت الشعاب ، وارتوت الحقول ، وحييت المزارع .

وما إن رأى الأمير الغيث يسقي مملكته حتى بادر إلى دعوة شعبه إلى الدين الجديد ، ومن ذلك التاريخ البعيد بدأ انتشارِ الإسلام بين ظهراني شعب ماندين .

ويبدو أن « سون جاتا كيتا SON DIATTA KEITA » كان المؤسس الحقيقي لمملكة مالي ؛ على أنه على الرغم من وجود ملحمة شهيرة تدور حول

شخصيته تصدح بها شعوب ماندين تخليدًا لذكراه ، فإننا نجهل حياته الحقيقية غير الأسطورية ، وبالأخص ما يتعلق بإسلامه .

في حين خلد التاريخ ذكرى أولاده وأحفاده لما نهضوا به من أعمال جلّى لدفع عجلة الإسلام إلى الأمام في منطقة غربي أفريقيا ؛ وسجل التاريخ بالخصوص أسماء (منسا موسى وولي MENSA MOUSSA OULE[19]) (١٢٥٥ ـ ١٢٧٠م) ، أحد أبْنَاءِ « سون جاتا » ، وكان « موسى وولي » قد حج بيت الله في موكب حافل .

ويعد « موسى كانكو KANKOU أوْ كانكا KANKA » من أشهر ملوك مملكة مالي وأكثرهم نفعًا للإسلام في تلك الحقبة ، وكان على جانب من الذكاء والفطنة والعلم ، وكان يتكلم اللغة العربية بطلاقة ؛ وقيل : إنه ألّف كتابًا في الفقه المالكي .

قام « منسا موسى » هذا برحلة إلى المشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج سنة ١٣٢٤م فتركت في العالم كله صدىً كبيرًا لما تميزت به من أبهة ؛ ولما قيل عن ثروة هذا الملك الأفريقي ، ومما زاد في صدى هذه الرحلة أن منسا موسى اصطحب معه ستمائة رقيق كانوا يحملون على ظهورهم الذهب والتبر الخالص ، وأنه أنفق أموالًا طائلة على المساكين والمعوزين بمكة والمدينة .

ولم تقتصر هذه الرحلة التاريخية على جانب أداء المناسك ؛ بل إلى جانب ذلك كانت رحلة تبادل ثقافي في واسع النطاق ؛ أولى « منسا موسى » خلالها عناية خاصة بالعلماء ، فاتصل بنخبة منهم بالقاهرة التي

(١٩) مانسا : في لغة ماندين تعني الملك ، ويلاحظ من ناحية أخرى أن ابن بطوطة يطلق كلمة مالي اسمًا لمدينة كان يقطنها منسا سليمان ، أي : عاصمة مملكة مالي .

عرج عليها ، فتباحث معهم حول قضايا مختلفة تهم العالم الإسلامي ، كما اهتبل فرصة وجوده في تلك الديار المعروفة بالعلم لاقتناء كمية وافرة من كتب فقه المالكية ، وأبدى اهتمامًا خاصًا بالفن المعماري الإسلامي الأصيل ، فاتصل خلال تنقلاته في المغرب والمشرق الإسلاميين بمهندسين معماريين للاستفادة بهم والأخذ عنهم . وقد نجح فعلاً في إبرام عقد عمل مع أحد المهندسين المعماريين من عرب الأندلس ، هو الشاعر أبو إسحقَ الساحلي الأندلسي[٢٠] ، الذي قبل أن يصحب « منسا موسىٰ كانكو » إلى مملكته حيث أشرف على تشييد مبانٍ عمومية عديدة في كل من (نيامي) ، عاصمة مالي يومذاك ، وفي مدن أخرى هامة من تلك البلاد .

ولما أنهى أبو إسحقَ المهام المنوطة به ، وصله « منسا موسى » بصلات باهظة تقدر باثني عشر ألف مثقالٍ ذهبًا !

واقتدى بـ « منسا موسىٰ » خلفاؤه ، فاعتنوا بالعلم وأهله ؛ وكان ابن بطوطة ، الرحالة المغربي ، الذي زار مملكة مالي سنة ١٣٥٢م ، أيام حكم « منسا سليمان » ـ أخي موسى كانكو ـ شاهد عيان للنهضة الثقافية والعمرانية ، وانتشار الإسلام والرقي الاجتماعي في مالي ، حيث يقول :

« إن أهل مالي كانوا يربطون أولادهم بالقيود ولا يفكون وثاقهم إلى أن يحفظوا كتاب الله عن ظهر قلب » وبخصوص التشبث بالعبادات يقول الرحالة المغربي :

(٢٠) انظر بهذا الصدد كتاب السيد حسن إبراهيم « انتشار الإسلام في القارة الأفريقية » حيث يقول فيه : .إن الفضل يعود إلى أبي إسحقَ في إدخال فن البناء بالآجرّ في غربي السودان ، وقد وافته المنية أثناء عودته إلى بلاده .

« إذا كان يوم الجمعة ، ولم يبكر المرء إلى المسجد فإنه لن يجد مكانًا يصلي فيه ، وذلك لشدة الزحام وكثرة إقبال الناس على أماكن العبادة .

أما استتاب الأمن فحدث عنه ولا حرج ، فقد كان أهل مالي يتمتعون بمستوىً أخلاقي رفيع ، لدرجة أن المرء لا ينزعج إذا ما ضاع له متاع لأنه متأكد من العثور عليه حيث أضاعه ؛ سالمًا من أي أذى »

ومن خلال شهادة ابن بطوطة نستطيع أن نتعرف على ملامح الإسلام في مملكة مالي ، وعلى مدى تمكنه من نفوس شعب (ماندين) حيث أصبح دين الدولة الرسمي .

إلى جانب السلطة الرسمية المتمثلة بملوك مالي أنفسهم ، فإن الموجات البشرية التي هاجرت من مالي في أوج عظمتها نحو غامبيا وغينيا بيساو بزعامة أحد جنرالات « سون جاتا كيتا » ، هو « تيراما خان تراوري TIRAMA KHAN TRAOURE » الذي حمل جنوده معهم الديانة الإسلامية خلال حملتهم في « جولوف » وغامبيا وجنوبي السنغال ، ثم توالت هجرات الجماعات من مالي نحو ما يعرف بـ « تليجي TILIDJI » أي الغرب ، وخصوصًا بعد اضمحلال هذه المملكة في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي . حيث رحل عدد كبير من مسلمي مالي إلى غامبيا وغينيا اللتين كانتا تابعتين له ، يضاف إلى هذه الهجرات دور التجار الماندينكيين المعروفين بـ « جولا » وكان لهؤلاء دور في نقل الإسلام إلى المناطق الغابوية الصعبة الولوج[٢١] .

(٢١) للمزيد من الاطلاع على دور جماعة ماندين في نشر الإسلام بجنوبي السنغال ، راجع مذكرتنا المقدمة لنيل دبلوم المدرسة الوطنية للإدارة والقضاء بعنوان : تأملات حول الإسلام لدى ماندين في كاسا منسا ـ سنة ١٩٧٨م داكار ـ باللغة الفرنسية .

ظهــور الإســـــلام في الســــــنغال

وقد ضربنا صفحًا عن ذكر مملكة « سنغاي » التي قامت على أنقاض مملكة مالي ، والتي قام ملوكها بنشاط هام لنشر الإسلام بغربي أفريقيا ، ويعتقد أن شأنها شأن مالي ، كانت تحكم بعض أجزاء السنغال خصوصًا شماليّه ؛ « فوتا » التي تعتبر أول منطقة تمكن فيها الإسلام في هذا البلد منذ بداية القرن العاشر الميلادي .

وقد يكون « وارانجاي OURA N'DJAYE » أول أمير سنغالي يعتنق الديانة الإسلامية . وقيل : إن ابنه « لابي LABI » . الذي اعتلى العرش بعد وفاة والده ، كانت له يد طولى في انتصار المرابطين سنة ١٠٥٦م على خصومهم من قبيلة « أكدالة » البربرية .

وباستثناء شرقي وجنوبي السنغال ـ للأسباب التاريخية السالفة الذكر ـ فإن باقي مناطق البلاد مدين لـ « فوتا » بإسلامه .

العوامل التي ساعدت على انتشار الإســـلام في الســـنغال

تضافرت عدة عوامل فساعدت على انتشار الإسلام سلميًا في القطر السنغالي ، وكان بعضها عائدًا إلى طبيعة الدين الإسلامي نفسه ، وبعضها الآخر راجعًا إلى عوامل استجدت في الساحة السنغالية . ونتعرض فيما يلي لأهم تلك العوامل :

* جاذبية العقــيدة الإســـلامية

تستهوي الأرواحي نحو الإسلام وحدته وتجانسه وتناسقه وتماسك المسلمين وتشابههم ؛ إذ يتقاسم جميع أفراد الجماعة الإسلامية عقيدة

واحدة وعبادات متحدة لا تتغاير مهما تباين مكان وزمان ممارسيها ، ومهما تباعدت أصول ولغات وألوان وظروف حياة أتباعها .

لهذا اعترف (أنتيامبا ANTIAMBA) ـ من جماعة (دوغون DOGON)[1] بعد تجوال طويل في عدد من الأقطار أحس أثناءه بالعزلة التامة والغربة والوحشة ، وكان سبب ذلك بعده عن موطنه الأصلي الذي بمجرد أن غادره بدأ اعتباره أجنبيًا في معتقده وفي طقوسه الدينية وعاداته حيث لم يشاهد أحدًا يمارس ما يمارسه ، فلا يشارك أحدًا من الأرواحيين من مناطق أخرى في العبادة ، والعكس بالعكس ـ قائلًا : « يسوغ أن يكون الخطأ وحده المتعدد »[2] .

* الرقي الاجتماعي الذي يخوله الإسلام لأتباعه :

علاوة على هذه الوحدة الروحية فإن الإسلام يهيىء للفرد المسلم نوعًا من التفتح على العالم يكفل له استعدادًا فكريًا يوفر له عوامل تساعد على الرقي الاجتماعي ، ويدفعه إلى التطلع إلى حياة أفضل ، ويخرجه من وضع اجتماعي وثقافي واقتصادي متدنٍ إلى وضع أعلى وأرقى : يبدأ أولًا من المظهر الخارجي ؛ ملابس بيضاء ناصعة نظيفة جميلة تروق ناظريها ، وجسم نظيف يفوح بالعطر يتعهده المسلم على مدى اليوم بالوضوء ، ومساكن راقية ـ بالقياس إلى مساكن الأرواحي ـ ينبعث منها من حين لآخر أريج البخور . . . ويتعاطى المسلم النشاط التجاري مما سمح له أن يكوّن مركزًا اجتماعيًا بفضل ثروته ، أضف إلى ذلك أن

---

(١) دوغون قبيلة معروفة في جمهورية مالي مشهورة بصناعة الأقنعة .

(٢) فروليش : مسلمو أفريقيا السوداء : ص ٩١ .

المجتمع الإسلامي مهما كانت بساطته يتوفر على مؤسسات عمومية يتعهدها جميع أعضاء الجماعة دون تمييز : مساجد وجوامع ومدارس ومجالس العلم مما لا نظير له في المجتمع الأرواحي ، ولا يحسن إهمال دور معرفة القراءة والكتابة التي يتمتع بها بعض أفراد المسلمين ، فهما لغزان طالما حيّرا عقل الأرواحي الذي ظل يتطلع إلى كشف كنههما لأنهما الطريق الموصل إلى مصافّ الإنسان المتطور .

* سهولة وبساطة العقيدة الإسلامية :

على أن سهولة وبساطة عقيدة الإسلام ساهمتا في انتشاره بسرعة ، فالإيمان بوحدانية الله تعالى ، والاعتراف برسالة محمد ﷺ ، والالتزام بمقتضى هذه العقيدة يجعل المرء كامل العضوية في الجماعة الإسلامية دونما قيد أو شرط ، حيث إنه غير مطالب أن يتخلى عن زيجاته التي لا تتجاوز الأربع . . .

* الصلاة جماعة :

إن للصلاة جاذبيتها الكبيرة خصوصًا حين تؤدىٰ جماعة : يؤُم الإمام الجماعة ، ويرتل آيات من الذكر الحكيم ، وعندما يقوم بحركة يتبعه المأمومون بحركات منسقة ومنظمة لا تصاحبها ضوضاء ولا صخب ولا هرج ، خلاف ما يقترن بطقوس الأرواحيين من فوضى . . .

* دور التجار المتنقلين :

لا يقل دور التجار شأنًا في هذا المجال عن غيرهم ؛ فهٰؤلاء وإن لم يكونوا دعاة متخصصين فهم أثناء عرض بضائعهم على الأرواحيين كانوا يقومون بالدعوة إلى الإسلام حيث يتعرف غير المسلم إلى الإسلام عن طريق الحوار أثناء المساومات الطويلة والاحتكاك . إن « جولا » لا يعزفون عن الزواج ببنات زبائنهم الأرواحيين ، وبالمصاهرة يتحول

الأصهار إلى دين أزواج بناتهم .

فهكذا استطاع التجار المسلمون « جولا » المتنقلون تبليغ الدعوة إلى المناطق النائية و « الغابوية » من مجاهل أفريقيا ، مما يفند المزاعم القائلة : إن الإسلام وقف على تخوم الغابات الكثيفة حيث لا تتجاسر أفراس العرب على التوغل فيها ؛ زد على ذلك أن هذه الأفراس ـ إن وجدت في بعض مناطق القارة الأفريقية ـ لم تقم بأدنى دور في نشر الإسلام بغربي أفريقيا .

وكان « جولا DIOULA » ولا يزالون يجوبون أرجاء غربي أفريقيا كلها ، ويتصلون بشعوبها ، وكانوا متخصصين في تجارة ثمرة « كولا KOLA » وهي ثمرة شجر ينبت في المناطق الغابوية[٣] ، ومن المسلم به أن إشعاع الإسلام بدأ في المناطق الحضرية حيث كانت المراكز التجارية وطرق القوافل والمدن الهامة يروج فيها التبادل التجاري .

* دور الشيوخ في نشر الإسلام في السنغال :

لقد ثبت تاريخيًّا أن التجار المتنقلين « جولا DIOULA » قاموا بنشر العقيدة الإسلامية أثناء أسفارهم وتجوالهم ، لكن الدور الأول يرجع في ذلك إلى شيوخ أفارقة وعرب وبربر أبلوا البلاء الحسن في هذا المجال ، فقد « عم الإسلام في المنطقة ـ غربي أفريقيا ـ بفضل شجاعة وتفاني هؤلاء الرجال المتواضعين من الشيوخ المخلصين المجهولين الذين كانوا

---

(٣) يلاحظ أن ثمرة « كولا » مقدسة لدى عدد من شعوب غربي أفريقيا ، تقدم كهدايا ، وتوزع بعد المآدب ، وتكون جزءًا هامًّا من أدوات متعاطي الطلاسم ، وتوضع على أضرحة من يعتقد فيهم الولاية ، والاسم العربي الصحيح لها ، هو البندق الأفريقي ، ويطلق عليها في بعض الأوساط الإسلامية المتعلمة كلمة : طنبول ، ولا أعتقد أنها هي البندق الأفريقي ، ويبدو لي أن استعمال كلمة « كولا » أقرب إلى الفهم عند الحاجة لشهرتها .

يسلكون أوعر المسالك ، حاملين عيابهم المليئة بالزاد والكتب »[٤] .

وقد لاحظ أوروبيون كانوا يقومون بزيارة السنغال في القرن الخامس عشر الميلادي ، حضور شيوخ من المغرب وتلمسان وموريتانيا في بلاط كلٍّ من ملك « كاجور وجولوف وسين وسالوم » . . . ويذكرنا هذا الحضور بوجود المسلمين في قصور ملوك غانا ، وكذا بسبب اعتناق أمير مالي الإسلام على يد شيخ كان في عاصمته أثناء أزمة حادة .

وكانت الجالية الإسلامية في القرن الخامس عشر الميلادي ذات شأن كبير في مختلف أقاليم السنغال ، فلاحظ أحد الرحالة الأوروبيين سنة ١٥٠٦م أن « ملك وأعيان إمارة « جولوف » كانوا مسلمين ، ولديهم شيوخ بيض من أئمة ودعاة الإسلام ، وكانوا يعرفون القراءة والكتابة ، ويأتي هؤلاء الشيوخ من بلدان بعيدة من الداخل ، ومن مملكة فاس والمغرب (كذا) ويقدمون بهدف إدخال السود إلى عقيدتهم عن طريق الدعوة »[٥] .

وكان الشيوخ يقومون بالدعوة إلى الإسلام دونما قلق أو إزعاج يأتيهم من طرف السلطات الرسمية ؛ ذلك بأنهم كانت تحيط بهم هالة من التعظيم ، فعلى الرغم من كون غالبية الأمراء لا يدينون بالإسلام ، وكون المسلمين أقلية ، فإن الأرواحيين على مختلف نحلهم ومللهم يحترمون الشيوخ ولا ينالونهم بسوء ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة « موللين MOLLIEN » أثناء زيارته لبعض أقاليم السنغال في القرن التاسع عشر « يحصل الإسلام كل يوم على تقدم ، وسيصبح قريبًا الدين الوحيد لإقليم

---

(٤) سيدو باجان كوياتي ، تعرض له مونتي في كتابه : الإسلام الأسود ، المشار إليه سابقًا .

(٥) شيخ تجاني سي : الطريقة السنغالية للمريدين

La Confrerie Senegalaise des Mourides P.35.

« كاجور » ؛ إذ بقي القصر وحده متشبثًا بالوثنية » . ويعلل « موللين » نجاح الإسلام بـ « الحصانة التي تجعل شخص الداعية المسلم مقدسًا عند الأمراء الوثنيين ، مثل ما هو محترم لدى المسلمين ، مما يساعد على انتشار الإسلام عند هذه الشعوب »[٦] .

وخليق بنا أن نتدارك هنا أن كلمة شيخ التي تقابل « MARRABOUT » بالفرنسية ، هي عكس كلمة « تيدو TIEDO » ، التي تعني : الشخص الذي يشتغل بالعبادة ، والدعوة ، وتكوين الناشئة ، والذكر ، وكبح الأهواء ، والبعد عن المرح ، والزهد في حطام الدنيا ؛ ولا يتعاطى كلَّ ما من شأنه أن يحدث فصلًا بينه وبين نشاطه الديني .

* طائفة « تيدو » :

كلمة « تيدو » هذه لدى جماعة « ولوف » تقابل « سونينْكي » عند جماعة « ماندنيكي » وتعني : الخبث والوحشية والدناءة والخشونة والكفر ، وهي فئة كانت - كما لاحظ « بولان » - : منتشرة في مختلف أنحاء السنغال وتشكل « ميليشيات » السلطات القائمة آنذاك ، وكانت تعيش على السرقة والنهب وتمارس كل أنواع المنكرات والموبقات .

ويبدو لأول وهلة من التناقض الفاضح أن يعتبر أشخاص هذه صفتهم مساهمين في نشر الإسلام ، ولكن معرفة علاقة هؤلاء بشعوبهم ، وتصرفاتهم القاسية تجاهها ، توضح جليًا مدى دورهم عن غير قصد منهم في الدعوة إلى الإسلام ، والتفاف الناس حوله ، وذلك أن طائفة « تيدو » كانت تسطو على ممتلكات وأرواح « بادولو »[٧] بسبب وبدون سبب ، وتتحكم في حياتهم ، وتتصرف فيها تصرفات خرقاء لجهلها ، فتسلبهم

---

(٦) المصدر نفسه - شيخ تجاني سي .

(٧) بادولو بلغة « ولوف » تعني : الضعيف المغلوب على أمره ؛ وتطلق على عامة الشعب .

كل حق ، وتثقل كواهلهم بالضرائب التي يحلو لها أن تجبيها ، ثم لا تمر إلا فترة وجيزة على ذلك حتى تعاود الكرة لتستولي على كل ما تقع عليه يدها من أموال وأمتعة وأثاث . . .

ولقد بلغت من غطرسة (داو دمبا DAW DEMBA ـ ١٦٤٠ ـ ١٦٤٧م) ، أحد ملوك تيدو ، أنه كان « يمنع السود ـ رعاياه ـ من الزواج » ويطرد العجزة من حضرته ، ويحظر على « بادولو » ارتداء السراويل ، وتمليح « الكسكس » لأن الملح صالح للأمراء ـ وحدهم ـ ولم يهيأ لعامة الشعب » .

وقد صور « مير MAIRE » ـ الذي زار إمارة « والو » في القرن السابع عشر الميلادي بشكل بشع استبدادَ « براك BRAK » ، ملك تلك الإمارة ، حيث قال : « إذا لم يتمكن ـ أي براك ـ من استعمال الاستبداد تجاه البلدان المجاورة فإنه يمارسه ضد شعبه ؛ كان يجوب البلاد ، يقيم يومين في قرية وثلاثة أيام في أخرى ؛ حيث يكلف أهل القرى بتغذيته هو وحاشيته المكونة من مائتي خبيث . . . ولأتفه إساءة يخربون القرى ويسترّقون بعض أهلها »[8] .

من خلال استبداد وقساوة « تيدو » برزت الدعوة الإسلامية أمام « بادولو » منقذاً لهم ممّا هم فيه ، وحصناً يصونهم من غلبة وقسر السلطة الاستبدادية ، فكانت قرى وبيوت الشيوخ ملجأً للمستضعفين ومأوىً لعامة الشعب .

لذلك كلما تفاقمت ضغوط « تيدو » ، تكاثف إقبال الناس على الإسلام وارتفع إحساس المسلمين بضرورة الذب عن الحق وحماية « بادولو » حتى أصبح الاصطدام بين الطائفة الإسلامية وأنظمة « تيدو »

(٨) راجع كتاب شيخ تجاني سي المشار إليه سابقا .

أمرًا لا مناص منه . ولم تكن دواعي تلك النزاعات المسلحة ـ في أغلب الأحوال ـ إكراه الناس على اعتناق العقيدة الإسلامية ، بل كان الدافع الموضوعي حماية المجتمع السنغالي ككل ، والدفاع عن كيان الجماعة الإسلامية بصفة خاصة . وكان كلما ازدادت قوة أتباع الإسلام ، نما خوف طائفة « تيدو » وصعَّدت مناوشتها للمسلمين . ولعل الحادثة التي تعرض لها الشيخ « مابا جاخو با » ، وهو يومئذٍ طالب لدى أحد الشيوخ في « كاجور » من الدلائل على أسلوب القسر عند « تيدو » .

وملخص الحادثة أن الشيخ « مابا جاخو با » كان يعمل يومًا في ضيعة شيخه فإذا بأحد أفراد « تيدو » يسطو على الضيعة لاختلاس الغلال والأموال منها ، فتعرض له الشيخ وما كان سوى جولات حتى أردى المعتدي قتيلاً .

وتدخل في هذا الإطار ثورة الشيخ « سيلا با ـ CHEIKH SYLLA BA » بإقليم كازا منسا ، التي تعود أسبابها إلى أن « بينونك BAINOUNK »[9] ـ وهي صاحبة السلطة في تلك البلاد ـ كانت تحول بين « سيلا » وتلامذته وأفراد الطائفة الإسلامية كافة في المنطقة وبين ممارسة شعائر الإسلام . وكان يأتي بعض أفراد « بينونك » وقت الإفطار في شهر رمضان فيصبون الخمور على موائد المسلمين ، وأمام تعنت وتمادي هذه الجماعة الطائشة اضطر الشيخ « سيلا » لمنازلتها وإعلان الجهاد المقدس ضدها ، فانتصر عليها ومزقها شر ممزق ، وكانت تلك الانتفاضة سببًا لانتصار الإسلام وانتشاره بجنوبي السنغال .

وحتى الإدارة الفرنسية الأجنبية كانت قد شجبت قساوة نظام « تيدو » ، وامتدحت جهود الشيخ « مابا جاخو » ، الذي كانت تعتبره ألد أعدائها ،

(٩) قد تكون جماعة « بينونك » أولى سكان جنوبي السنغال المعروف باسم كازا منسا .

وذلك لدور هذا الشيخ في استتباب الأمن في « شالوم وسين » ، وعمله لتوفير الكرامة لشعبه ، ودوره في ترسيخ قواعد العدالة في المنطقة التي كانت تحت نفوذه (أعتقد أن الثورة الماضية باسم الحضارة الإسلامية ضد الطغيان الأعمى ووحشية « تيدو » ستكون مقبولة لدى شعب « ولوف » الخاضع للحيف)[١٠] وهذا الكلام صادر من أحد أقطاب الاستعمار الفرنسي في السنغال ؛ الذي لم ير بدًّا من تعرية نظام « تيدو » الغاشم .

ويشير بعض المؤرخين إلى أن الأمير « لاتجور LATDIOR » لم يخذله قائده العسكري « دمبا وارسال DEMBA WAR SALL » إلاّ عندما حرم عليه وعلى أتباعه النهب والغصب والسطوة على أموال « بادولو » .

ومن نافلة القول : الإلحاح على التدليل بأن المسلمين لم يحملوا السلاح لفرض دينهم على غيرهم بغربي أفريقيا ، وإنما انجذب إلى الإسلام أناس نالوا من حيف وجور سلطة لا تدين بدين ولا تحترم عهدًا ولا ترضخ لسلطان قانون . . .

وكفى برهانًا على ما نقول ؛ مراجعة الأوضاع السائدة في مختلف أقاليم السنغال ، وخصوصًا في فوتا في القرن الثامن عشر قبل حركة الشيخ سليمان بال ، حيث نجد أن الظلم قد طفح والاستبداد بلغ كل مبلغ ، ولم يصبح هناك مندوحة سوى الاحتكام إلى حد السيف ، ومما جعل الأمر يستفحل في فوتا أن حكامها (ساتيك SATIK) وهنوا واستكانوا إلى حد التنازل عن بعض سيادة البلاد لصالح جيرانهم من ترارزة[١١] ، والتآمر معهم ضد رعاياهم الذين أصبحوا عرضة للاختطاف

(١٠) « بيني لابراد » : أحد حكام فرنسا في السنغال ، كان قد دارت بينه وبين الشيخ مابا جاخوبا معارك ضارية كانت سجالاً بينهما .

(١١) منطقة في موريتانيا ، مجاورة لـ « فوتا تورو » .

والبيع في أسواق النخاسة[١٢] .

ولما قويت شوكة (تورودو TORODO)[١٣] واستتب الأمر للمسلمين في فوتا ، وقامت دعائم الإمامة « ألماميا »[١٤] ، لم يفرض النظام الجديد عقيدة الإسلام على أحد ، بل انصب اهتمامه على تعمير البلاد وتصعيد الدعوة إلى العقيدة الإسلامية ، وتشييد المؤسسات الدينية ، والسهر على مصالح رعاياه ، وحمايتهم من تعسف الطغاة والظالمين ، وتطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية على الحياة العامة .

حدثت عدة انتفاضات إسلامية في مناطق مختلفة من السنغال خلال القرنين : الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ضد استبداد « تيدو » .

ففي جنوبي السنغال قامت حركة إسلامية كبيرة باسم « كاندايا KANDAYA » وخصوصًا بمنطقة « باكاو PAKAO » ، وكانت رد فعل لظلم وتعسف « سونينكي SONINKE » وكان القبطان « بوللتيه PELLETIE » قد عايش جانبًا من تلك الحركة سنة ١٨٤٣م فكتب عنها يقول : « لم يصبح لـ (سونينكي) قيمة اليوم ، حيث قتل المسلمون منهم قسمًا كبيرًا ، والقليل الباقي منهم قَبِلَ بسيطرتهم ، ولم يعد ملك (بوتيه BOUTHIE) ذا وزن ، شأنه شأن (سونابا SOUNABA) زعيم (سندنير SANDINIER) الذي

(١٢) قام الأفارقة أنفسهم بدور في هذه التجارة ، حيث كانوا يبيعون بني جلدتهم غلبة وظلمًا .

(١٣) كلمة تورودو تطلق على النخبة المتعلمة من سكان فوتا تورو ، التي كانت تكوِّن الأرستقراطية الحاكمة في نظام الإمامة : الذي أقامه الشيخان : سليمان بال ، وعبد القادر كان .

(١٤) « ألماميا » أطلقت على أنظمة قامت في فترات متقاربة ومناطق متجاورة في « فوتا جالون » غينيا حاليًا ، و « فوتا تورو » في السنغال ؛ ويطلق على القائم بالأمر في تلك الأنظمة اسم « ألمامي » وهو تحريف لكلمة : الإمام .

أعلن إسلامه »[15] .

ومما يؤسف له حقًا أن نرى بعض المثقفين السنغاليين لم يكلفوا أنفسهم عناء دراسة وتدبر طبيعة النزاعات المسلحة التي دارت رحاها بين الطائفة الإسلامية وطغمة « تيدو » ، ففاتهم إمعان النظر في ملابسات تلك الحقبة الخطيرة من تاريخنا[16] ، فانزلقوا يصفون حروب المسلمين الدفاعية بعدم الشرعية ؛ متأثرين بالنزعات الاستعمارية المعادية للإسلام التي كانت تبث السموم لتثبيط همم أبناء الإسلام حتى لا ينهضوا للدفاع عن حوزة دينهم ، وفضلاً عن ذلك فقد قام الاستعمار بمحاربة حركات المقاومة الإسلامية الهادفة ، وشجب مواقف قادتها البطولية ، وقذف أعمالهم بكل أنواع القدح والقذع ، وشوّه سيرة كل زعيم مسلم عارض مشاريع الاستعمار والاستغلال ، فاتهم بعضهم بالاستبداد ، وبعضهم الآخر بالقسوة واستغلال الإسلام لأغراض شخصية . . . ومن هنا وقع الأستاذ « شيخ توري » ، رئيس الاتحاد الثقافي سابقًا في حبائل الدعاية الاستعمارية حينما صرح أمام مؤتمر عقد في مدينة « أبيدجان » في إبريل سنة ١٩٦٢م قائلا : « إن كل الحروب التي حدثت في أفريقيا منذ وصول الإسلام حتى الآن مستنكرة وقابلة للانتقاد »[17] .

---

(١٥) كرستان روش : غزو ومقاومة شعوب كازا منسا
CONQUETE ET REISISTANCE DES PEUPLES DE CASAMANCE.

(١٦) سيأتي الكلام على هذا في الفصل المخصص للحركات الإسلامية .

(١٧) فنسان مونتي في كتابه : L'ISALM NOIR .

هذه النسب بخصوص تكاثف الجماعات في السنغال تقريبية ؛ إذ لا تعتمد على إحصاءات رسمية ، وإنما اعتمدنا فيها على تقديرات عامة وملاحظة كثافة وجود جماعة من تلك الجماعات في منطقة ما فقدرنا نسبة عدد أفرادها بالقياس إلى الجماعات الأخرى .

الحركات الإسلامية في السنغال في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

هناك حقيقة لا مناص من ذكرها : وهي أن الإسلام لم يتم انتشاره في السنغال بفعل أعمال عسكرية ، وإنما عمّ هذا البلد بفضل تضافر عدة عوامل سبقت الإشارة إلى بعضها ، ولا ينبغي لأي دارس بجدية أن يعبأ بادعاء (ديشام DESCHAMPS) القائل : « إنَّ الإسلام لجأ أحيانًا إلى الغزو الوحشي - كذا - وقد جرّ تعصب وكبرياء الفاتحين إلى احتقار الوثنيين وإخلاء سبيلهم ليعيشوا ، وتارة إلى استعبادهم ، وحينًا آخر إلى ترك الخيار لهم بين الإسلام والموت »(١) .

على أنَّ التاريخ يفند هذه المزاعم بشهادة المستعمرين أنفسهم الذين اضطروا إلى الاعتراف بأهمية وعدالة الحركات الإسلامية « أعتقد - يقول «لابراد» - أن الثورة الماضية باسم الحضارة الإسلامية ضد الطغيان الأعمى ووحشية «تيدو» ستكون مقبولة لدى شعب « ولوف » الخاضع للحيف »(٢) .

كانت هذه الوحشية التي يتحدث عنها « بيني لابراد » أحد العوامل التي تسببت في قيام ثورات المسلمين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين .

ومن قدر الله عزّ وجل أن تلك الحركات الإسلامية على اختلاف أرضية انطلاقاتها ظهرت في فترات تاريخية متقاربة نسبيًا ، واستغرقت مدى قرن

---

(١) ديشام : أديان أفريقيا السوداء Deschamps: Les Religions D'Afrique Noire

(٢) « بيني لابراد » حاكم سابق لمستعمرة السنغال .

ونصف القرن ، وبرزت جميعها بعد انحلال وانقراض الإمبراطوريات : غانا ومالي وسنغاي بغربي أفريقيا ، وبعد انقطاع الصلات بين ضفتي الصحراء الكبرى(٣) إثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وتحول النشاط التجاري عن بعض أطراف البحر الأبيض المتوسط ، مما ساهم إلى حدّ ما في زعزعة دول شمالي أفريقيا ، ونجم عن هذا الوضع انصراف الأنظار عن ذهب (بلاد السودان) أي : غربي أفريقيا .

ومما زاد الطين بلة أن تزامن ذلك كلّه مع سقوط مدينة « تمبكتو » الشهيرة بالعلم على يد القائد العسكري المغربي « جودر باشا » والباشوات الذين حكموا هذه المدينة من بعده ، وكانت سيطرتهم على « تمبكتو » عامل تقهقر حضاري ، وتدهور اقتصادي ، وتأخر ثقافي ، لما كان لـ « تمبكتو » من مركز إشعاعي هام ، ولكونها همزة وصل بين شماليّ أفريقيا وغربيّها ؛ كما كانت محطّ رجال العلم ، وموطن علماء كبار من سود وبيض ، ومنار هداية يقصدها طلبة العلم من كل حدب وصوب .

ولما استولى عليها « جودر » ورجاله حوّلوها إلى شبح مخيف ، يعيث فيها العسكر فسادًا ، ويفشون فيها الفجور ؛ الأمر الذي جعل الحركة العلمية والثقافية تتردّى وتتدنى ، واصطدمت طغمة الباشا « جودر »

---

(٣) تجدر الإشارة إلى أن بعض رجال الدولة المسلمين في غربي أفريقيا حاولوا تجديد الاتصال بدول المغرب العربي ، من ذلك مثلاً : قيام « أحمد الشيخ » أحد سلاطين دولة « الدّينة » في « ماسينا » بالكتابة إلى السلطان سيد عبد الرحمن أحد ملوك الدولة العلوية ، وإلى العثمانيين في الجزائر لتقديم ولائه لهم ، لكن رسائله ضاعت في رمال الصحراء ، ولم تصل إلى أصحابها .

بعلماء المدينة فأبعدت بعضهم[٤] ، واضطهدت بعضهم الآخر ، الأمر الذي أدّى إلى اتساع رقعة الانقطاع بين شمالي وجنوبي الصحراء الكبرى ؛ وكان لذلك كله انعكاسات وانتكاسات على الساحة الإسلامية في السنغال ، ثم تزامن ظهور المغاربة في مملكة سنغاي مع تقهقر الدعوة الإسلامية بغربي القارة الأفريقية ، لأن هذه الدولة كانت قاعدة قوية لنشر الإسلام حيث نشطت فيها الحركة الإسلامية تحت رعايتها .

أضف إلى ما سبق : تحوّل الأنظار عن بعض مناطق البحر الأبيض المتوسط بفعل تصاعد القوى الصناعية الناهضة بأوروبا ؛ التي أصبحت تتطلع إلى كشف أسواق جديدة توز ع فيها منتجاتها الصناعية ، ولتضمن توفر المواد الخام لمصانعها ، وفي الوقت ذاته كانت ترنو بنهم إلى أراضي ما وراء البحار للاستيلاء عليها ، واستغلال ثرواتها الطبيعية ، واستعباد شعوبها .

وكانت مملكة سنغاي تستقطب شعوبًا عديدة من غربي أفريقيا ، وتسيطر على أراضٍ شاسعة ، وبعد انقراضها تفككت إلى إمارات ومشيخات صغيرة لا يضم بعضها إلاَّ رقعة من الأرض يسيرة ، فتحولت غالبية حكوماتها إلى أنظمة استبدادية ، تمارس ضد شعوبها أبشع صور

---

(٤) من علماء تمبكتو الذين أُبعدوا عنها : العلامة أحمد بابا السوداني ، الذي لاقى الأهوال أثناء نقله إلىٰ مراكش ، عاصمة أحمد الذهبي ، وقد انكسرت رجله خلال الرحلة . وقد تصدر للتدريس في جامع الكتبية بمراكش إبان وجوده في جنوبي المغرب كأسير . . .
ولا يخفى على أحد دور المغرب والمغاربة في ترسيخ دعائم العقيدة الإسلامية في غربي أفريقيا ، حيث كانت دور العلم فيه ولا تزال ، خاصة جامعة القرويين بفاس ، محطّ رحال طلبة العلم من الأفارقة المسلمين ، ومناهل عذبة للعرفان ؛ وكاتب هذه السطور واحد ممن درسوا في هذه الجامعة سنتين كاملتين ، ولا يبرح يحتفظ بذكريات عطرة عنها .

الطغيان ، فحينئذٍ ازداد شعور المسلمين بالظلم ، ونما إحساسهم بالاضطهاد الذي أصبحوا موضعًا له ، فقاموا بمناهضته ، وزادُ من مقاومتهم له أنهم ينتمون إلى عالم يغاير عالم الأرواحية والاستبداد ، وكان لا بد والحالة هذه من تغيير الوضع لصالح الجماعة الإسلامية .

ويسوغ تلخيص أهداف وأسباب قيام الحركات الإسلامية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين فيما يلي :

* حماية المسلمين من ظلم وغطرسة « تيدو » .
* صيانة استقلال البلاد والحيلولة دون المساس بسيادتها .
* محاولة إعادة الوحدات السياسية على غرار مملكتي مالي ، وسنغاي .
* إعادة الكرامة الإنسانية لإنسان هذه المنطقة دون نظر إلى أصوله ومعتقداته بعد أن كانت كرامته مداسة من قبل نظام « تيدو » .

وكانت الحركة الإسلامية هذه على وشك إنجاز أهدافها لولا أن عاجلها الاستعمار الصليبي الغربي ، وفوّت على الإسلام فرصة ذهبية للانتشار الكلي في غربي أفريقيا ، ولو انتشر الدين الإسلامي على يد سلطة زمنية تسهر عليه وترعاه لما عرف ما يعرفه اليوم من تحريف وتشويه ، لأنَّ وضعه الحالي ناجم عن كونه انتشر في ظل أنظمة كانت تجهد نفسها للإجهاز عليه ، وعندما استعصى ذلك عليها ، رحبت بكل ردّة إلى الأرواحية ، أو أي تحريف يموّه حقيقته وينحرف بالمسلم عنه .

بهدف تصحيح الأوضاع قامت الحركة الإسلامية في (فوتا تورو) وتأسست إثرها الإمامة ما بين عامي ١٧٧٦م و١٨٨١م .

وخليق بنا أن نبيِّن أن من مزايا هذا النظام بُعده عن الاستبداد ، حيث كان يشترط فيمن يتقلد مهام الإمامة « ألماميا » أن تتوفر فيه صفات : العلم

والاستقامة والتقوى ، والورع ، فضلاً عن أن المنصب غير وراثي ؛ يتطاول إليه كل من اجتمعت فيه شروط الإمامة .

لا غرو حينئذٍ أن تحقق الإمامة في « فوتا » إنجازات في ميادين شتى : فقد حرمت النخاسة في أراضيها « رفض الإمام (ملك بول) هدايا الشركة ، محرمًا بيع رعاياه ، ومانعًا مرور قوافل العبيد »[٥] وشجعت التعليم ، واعتنت بمجالس العلم ، وابتنت المساجد ، وابتعثت طلبة العلم إلى موريتانيا المجاورة . . . ولم تكتف الإمامة بنشر العقيدة الإسلامية في « فوتا » فحسب بل عملت على توسيع دائرة الإسلام إلى ما وراء حدودها السياسية حيث انطلق الدعاة نحو الأقاليم المجاورة لدى شعبي « ولوف وسيرير » فأحرزوا نجاحًا أيما نجاح .

وأعطت « فوتا » السنغال عددًا من كبار رجالات السياسة والفكر والحرب من الطراز الأول ، أمثال : الحاج عمر الفوتي ، والشيخ مابا جاخو با ، والحاج مالك سي ، والشيخ أحمد بامباو ، والشيخ موسى كامارا ، وغيرهم . . .

الداعية الحاج عمــر بن سعيد
المعــــروف بالحاج عمــــر
(١٢١٢ - ١٢٨١هـ ١٧٩٥ - ١٨٦٤م)

ولد الحاج عمر ببلدة « هلوار » بمنطقة « فوتا تورو » سنة ١٢١٢هـ وتوفي في كهف « ديغمبري » ١٢٨١هـ .

(٥) شيخ تيجان سي المشار إليه سابقا .

درس الفوتي في مقتبل عمره مبادىء اللغة العربية بعد حفظه لكتاب الله تعالى ، ثم تفقّه في المذهب المالكي السائد في غربي أفريقيا وشماليها ، حتى نال حظًا وافرًا ، وفي ريعان شبابه شدّ الرحال صوب « فوتا جالون » (غينيا) لطلب العلم ، وما برح حتى يمم نحو الشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج ، فأقام في الأراضي المقدسة ثلاث سنوات أو يزيد ، التقى خلالها بكبار علماء الحجاز ، ومن ثم عرج على مصر حيث اتصل بشيوخ الجامع الأزهر الشريف ، ولا نعرف ما إذا كان الفوتي تتلمذ على علماء الجامع الشهير ، غير أن من المحتمل أن يكون قد استفاد مما شهده في أرض الكنانة ، لأنَّ هذه البلاد بدأت تحتك بالغرب بعد حملة نابليون ، ولا يستبعد أن يطلع الزائر السنغالي على معلومات تتعلق بتقدم أوروبا المادي الذي جعلها تبيت النيّة وتعمل على إخضاع البلدان الإسلامية لسيطرتها .

وبعد عودة الفوتي إلى بلاده كان يقول بصدد النصارى : « إذا أتى البيض بالبضائع فعليهم أن يدفعوا رسومًا مرتفعة ، وعندئذٍ يستطيعون الاتجار معنا بسلام »[٦] .

إنَّ احتكاك الفوتي بعدّة شعوب إسلامية في القرن الثالث عشر الهجري ، ومعرفته الدقيقة بأحوالها ، ودراسته الطويلة للتاريخ الإسلامي أحدث تحوّلاً كبيرًا في تفكيره وتحليله لقضايا الإسلام ، فجعله يفكر في ضرورة تغيير الأوضاع ، حيث وعى بثاقب فكره أن دور المسلم لا ينبغي أن يقف عند أداء الشعائر الدينية - كما كان شأن كثير من شيوخ عصره - في الوقت الذي تتردى فيه شؤون المسلمين ، إذ لا يليق بالشيوخ الركون والاستكانة والتمكن والابتعاد عن مشاكل المسلمين السياسية

(٦) انظر كتاب شيخ تيجان سي : L'A cONFERERIE SENEGALAISES DE MOURIDES

والاجتماعية والاقتصادية ، والتفرج على ظلم وتعسف الأمراء الوثنيين الذين يسومون المسلمين أشد الإهانة والقهر .

لقد اندهش الفوتي لدى مقدمه من الشرق الإسلامي من فتور الوازع الديني لدى المسلمين ، وتشتت قواهم ، وتفشي الجهل فيهم ، مما يبعث على الرثاء ، واعتقد أن من واجبه أن يهب لنصرة بني دينه ما وجد لذلك سبيلاً « وهذا الموقف ـ يقول «ديمون» DU MONT ـ ليس له تعليل سوى نمو السمات الآتية في الفوتي منذ صباه : الإيمان ، والرغبة في نشر العقيدة الإسلامية ، وحماية الإسلام من سوء الفهم الذي أصابه في أفريقيا بسبب جهل العامة المجردين من كل تعليم ، وغير القادرين على الرجوع إلى نصوص الشريعة ، إضافة إلى تسرب بقايا الوثنية الخفية »[7] .

ولما عاد الفوتي إلى غربي أفريقيا ركّز اهتمامه على نشر الإسلام في المناطق التي لم يعمّها بعد ، وعلى تطهيره من الشوائب في الأقطار التي يكوّن فيها المسلمون الأغلبية .

لتحقيق هذه الأهداف أقام في منطقة في (غينيا) متاخمة للسنغال ومالي ، وهناك انضم إليه عدد كبير من الشباب الإسلامي الذين وفدوا إليه للاستزادة من المعرفة ، فكوّن منهم جيشًا عرمرمًا . ويمكن إيجاز أهداف الفوتي بالأمور التالية :

١ ـ إبعاد خطر النصارىٰ (الدول الاستعمارية) عن غربي أفريقيا حيث كان الأوروبيون يتاجرون مع أهل هذه المنطقة ، ويحاولون مدّ نفوذهم السياسي والاقتصادي ، وربما فرض النصرانية ـ دينهم ـ عليها .

(٧) فرناند دومـان : FERNAND DU MONT: L'ANTI SULTAN OU AL HADJI OMAR TAL DU FOUTA. COMBATTANT DE LA FOI.

٢ ـ العمل على نشر الإسلام في المناطق غير الإسلامية ، وتصحيح ما انحرف من عقيدة المسلمين ، وتطهيرها من الشوائب والخزعبلات والممارسات الغريبة والبعيدة عن الإسلام الصحيح .

٣ ـ وكان يرى أنَّ إحياء الإسلام لن يتم بالطريقة القادرية التي أصبحت فاترة ، والتي تُبالغ في التسامح مع الوثنية وتتقاعس عن الجهاد المقدس .

٤ ـ وكان يعتقد ـ وهو على صواب ـ أنه لا بد أن تكون هناك قوة مادية رادعة ومنظمة تقوم بمهمة حماية مكتسبات الإسلام ورعاية شؤون المسلمين .

لقد نجح الفوتي إلى حدٍّ بعيد في تحقيق خططه ؛ حيث استطاع خلال فترة وجيزة أن يجمع تحت راية الإسلام رقعة واسعة من منطقة ما حول نهري السنغال والنيجر .

الشيخ مابا جاخو با (١٨٠٩ ـ ١٨٦٧م)

قامت حركة ـ أو على الأصح ثورة[8] ـ الشيخ مابا جاخو با في منتصف القرن التاسع عشر كردّ فعل لتصاعد تعسف « تيدو » ضد مواطنيهم ؛ وكان الشيخ مابا قد التقى بالحاج عمر الفوتي سنة ١٨٤٨م الذي توسم فيه خيرًا ، وبشّره قائلاً : « ستصبح في مستقبل قريب ـ بإذن الله ـ من المجاهدين ، وستكون وبالاً على كفرة المشرق والمغرب ؛ أعلن الجهاد ولتكن « سين » آخر هدف لك ، لأنَّ « سيرير سين » وإن كانوا وثنيين

(٨) كان « بيني لابراد » أوّل من أطلق كلمة « ثورة » على حركة الشيخ مابا جاخو الإسلامية .

فإنهم شرفاء ونشطون ، لذلك فهم يستحقون الاحترام »[9] .

إنَّ هذا التصريح المنسوب إلى الحاج عمر الفوتي يفنّد افتراءات أُولئك الذين يزعمون أن حركة الشيخ مابا وأمثالها قامت أساسًا على استفزاز وعدوان مبيت ضد أتباع الأرواحية ، بل هو تأكيد صادق وتعليل موضوعي لأسباب تلك الانتفاضات الإسلامية ، فهي لم تقم إلاَّ لمقاومة الفساد والظلم لا لقهر النزهاء والعاملين مهما كانت عقيدتهم .

ولدى استقراء الوضع السائد في « سالوم وكاجور وباديبو » يظهر جليًّا تدني الأمن العام وتعاسة « بادولو » الأمر الذي جعل قيام حركة مابا جاخو حتمية لا مفر منها لرفع الظلم . ولتحقيق النجاح لمثل تلك الحركة لا بد من توفر حدّ أدنى من الوحدة ، وقيادة سياسية قوية وحكيمة ، وشاء الله تعالى أن اجتمع ذلك كله في شخص الشيخ مابا ، فاستطاع أن يقطع شوطًا بعيدًا في توحيد أقاليم «ريب» و «سالوم» و «باديبو» وأوشك أن يضم «سين» إلى مملكته لولا أن تصدت له القوى الاستعمارية تحت ستار « كومبا أندفين جوف فماك » فوضعت حدًّا للمد الإسلامي سنة ١٨٦٧م في معركة مشهورة باسم معركة «صومب»[10] حيث استشهد الشيخ مابا جاخو با ؛ لكن حركته لم تخمد بوفاته إذ حمل لواءها أخوه ونجله من بعده .

---

(٩) شيخ تجاني سي : الطريقة السنغالية للمريدين .

(١٠) انظر مقالنا حول معركة «صومب» في جريدة المسيرة التي تصدرها وزارة الإعلام بجمهورية السنغال .

الإمـــام فودي كبـــا دومبويـــا
FODE' KABA DOUMBOUYA
(١٨١٨ - ١٩٠١م)

لقد تركت حركة الشيخ مابا صدىً كبيرًا في غربي أفريقيا كله ، وساهمت في إبراز قيادات ، وخاصة في السنغال ، منها : حركة الإمام « فودي كبا دومبويا » الذي كان قد استنجد في بداية أمره بالشيخ « مابا جاخو با » حينما اعتدى بعض المعتدين عليه هو وطلبته بمنطقة كازا مانسا ، وأدّى تعاونه مع الشيخ مابا إلى نتائج مثمرة حيث ساعد على حماية الجماعة الإسلامية ورفع معنوياتها .

ركّز « فودي كبا » جلّ اهتمامه على جماعة (جولا) التي كانت إلى ذلك العهد ، لم ينتشر في صفوفها الدين الإسلامي ، وبفضل جهوده كلّل الله تعالى مساعيه بالنجاح بدخول عدد كبير من أبناء هذه الجماعة في الإسلام ، ونجح في بناء أسس الثقافة الإسلامية في تلك البلاد .

ولعلَّ أروع بطولة سجلها في تاريخ الحركة الإسلامية في السنغال هو رفضه رفضًا قاطعًا للمساومة حينما التجأ إليه مسلمون فارون من الاحتلال الإنجليزي إثر نزاع نشب بينهم وبين المحتلين الأجانب ، وكان هؤلاء قد طالبوا الإمام « فودي كبا » بعدم حماية المسلمين وبضرورة تسليمهم إليهم ؛ وكانت حمايته لأولئك المسلمين سببًا لنشوب معارك ضارية بينهم وبين ائتلاف مكوّن من الفرنسيين وحلفائهم من الخونة ، أثناء تلك الاصطدامات استشهد الإمام « فودي كبا » سنة ١٩٠١م بعد حياة حافلة

بالأعمال البطولية في خدمة العقيدة الإسلامية[11] .

كانت هناك حركات نشطة في مناطق مختلفة من السنغال تهدف كلها إلى ترسيخ قواعد الإسلام ، منها : حركات خطت خطوات هامة في سبيل تحقيق أهدافها ، وحركات تكالبت عليها قوى الشر ، من ذلك : ثورة الشيخ « سيرن أنجاي سال » الذي نجح في الوصول إلى الحكم في (كاجور) سنة ١٦٦٣م وحاول وضع البلاد في ظل الشريعة الإسلامية ، وتقدم مشروعه إلى حدٍّ بعيد ، ولم ينجح أعداء الإسلام في القضاء على نظامه إلاَّ بعد أن استغاثوا بأمير (سالوم) . وفي القرن الثامن عشر - في المنطقة ذاتها - قام المسلمون بثورة مماثلة ، وكان من سوء الحظ أن أحدق بهم الأعادي من كل جانب ، ففشلت ثورتهم بعد أن أبلوا البلاء الحسن ، وكانت الإجراءات التي اتخذت ضدهم قاسية حيث بيع بعضهم وفرَّ بعضهم الآخر إلى إقليم الرأس الأخضر .

---

(١١) انظر بهذا الخصوص مذكرتنا المشار إليها سابقًا .

الفصل الثالث

الاستعمار وانتشار الإسلام في السّنغال

من منّا لم تَغْزُ سمعه دقات الطبول التي تهوّل الخدمات التي أداها الاستعمار للإسلام لردّ الأمور إلى نصابها ؟! نستعرض بعجالة السياسة الاستعمارية الفرنسية نحو الإسلام في هذا البلد ، مشيرين إلى أن الاستعمار له مثالبه الأكيدة باعتباره المسؤول عن تدني وضع المسلمين من الناحية الثقافية في السنغال ، وكانت له جوانب - لا شك - إيجابية استفاد منها المسلمون أيما استفادة .

على أنَّ العلاقات بين الإسلام والاستعمار الفرنسي في السنغال مرّت بمراحل عدَّة تميزت بالاضطراب والغليان ، والصعود والهبوط . . .

عداوة مستحكمة متبادلة :

ذلك أن الاستعمار حين وصوله للسنغال لم يصادف أمامه قوة منظمة تعترض سبيله عدا القوة الإسلامية ؛ ومن وجهة نظر الإسلام ، كان الاستعمار العائق الأساسي لانتشار دين الله تعالىٰ في السنغال ، نظرًا لتوفر الظروف الموضوعية كلها لتحقيق ذلك ؛ إذ تزامنت فترة ظهور المستعمرين في المنطقة مع صعود الحركات الإسلامية بغربي أفريقيا عامة وبالقطر السنغالي خاصة ، وكاد أن يكتب لها النجاح لولا تصدي القوى الاستعمارية لها ، وبلغ من عداء النظام الاستعماري للإسلام أنه كان يستعين بطائفة «تيدو» لإخضاع المسلمين ، وذلك تشفيًا منهم وإهانة لهم .

ولم يخف المستعمرون يومًا من الأيام عداءهم للإسلام ، بل أعلنوا ضده حربًا صليبية لا هوادة فيها ، وقد اعترف الكاتب الفرنسي « ديشام DESCHAMPS » بأن القائدين العسكريين : « أرشينارد ARCHINARD » و « ماجين MAGIN » كانا يقودان حروبًا صليبية ضد « أحمدو عمر تال » ،

و« الإمام ساموري SAMORI » .

ومن مظاهر تلك العداوة أن المستعمر كان يشكك بمدى قوة وعمق العقيدة الإسلامية لدى المسلم الأفريقي ، ويزعم أن هذه الديانة تتعارض مع طبيعة الإنسان في القارة الأفريقية ، يقول « بول مارتي PAUL MARTY » بهذا الخصوص : « إنَّ ثوب الإسلام أيًّا كانت بساطته ولياقته لم يفصل للسود ، فهؤلاء يفصلونه من جديد لمقاييسهم ويزينونه حسب ذوقهم » .

ولا يكتفي المستعمر بادعاء تنافر الإسلام مع طبيعة الأفريقيين ، واستحالة اعتناقهم له ، بل يذهب بعض المستعمرين إلى أبعد من ذلك حيث زعم « أبدون أوجين ماج ABDON EUGENE MAGE » سنة ١٨٦٨م « أن أغلب مساوىء أفريقيا أتت من الإسلام ، ولذلك لا ينبغي تشجيعه في أي ظرف من الظروف ، سواء في مستعمراتنا الحالية أو تلك التي سنؤسسها مستقبلاً ، حتى ولو كان يبدو في مظاهر أكثر جاذبية ، كما يظهر ذلك أحيانًا في السنغال ، ويمكن أن تكون مبارزته علانية وخيمة ، أما تشجيعه فهو أخطر ، وفي رأيي أن ذلك - أي التشجيع - جريمة التواطؤ » .

وقد نفذت الإدارة الاستعمارية هذه السياسة المبنية على كره الإسلام ، حيث اعتبرته ألدّ أعدائها ، فلم تتأخر في اتخاذ التدابير التعسفية للحيلولة دون نموه الطبيعي وانتشاره المطّرد في السنغال . فكل ما قام به المستعمر من أعمال تبدو في صالح الديانة الإسلامية إنما قام بها بعد ألف حساب « إنه من الواجب الملقىٰ على عواتقنا أن نسهر كي لا تكون أبدًا العقيدة التي تدعو إليها الجماعات الإسلامية خطرًا على تحقيق الحضارة الكبيرة التي نتابعها »[١٢] .

---

(١٢) من خطاب « روم ROUM » عندما كان حاكمًا لفرنسا في السنغال ، وذلك حين تنصيب ما دعي بإدارة الشؤون الإسلامية .

والإسلام ، كما يدعي « بريفي BREVIE » قد فُرض على السود « إذ لم يختاروه عن طواعية منهم وإنما فرض عليهم بالقوة ، سواء أكان ذلك بعد فتوحات البربر المسلمين في الصحراء أو كان بيد الملوك الذين كانوا يقهرونهم لاعتناقه » .

على أنه في بعض المراحل ، لم يُقدم الاستعمار على مجابهة الإسلام مباشرة وعلانية وإنما وضع خطة تهدف على المدى البعيد إلى محو العقيدة الإسلامية ، وقد كشف « بيير أرنود PIERRE ARNAUD » عن نوايا بلاده في المستعمرات بقوله : « لا نعترف في أفريقيا الغربية إلاَّ بسلوك أخلاقي واحد هو سلوكنا » .

واتسمت المراحل الأولى من اتصال الإسلام في السنغال بالاستعمار بالعنف الشديد والعداوة ، حيث ظل المستعمر يعتقد أن الديانة الإسلامية هي العدو الذي لا مندوحة من القضاء عليه كي يصفو له الجو في المنطقة ، يقول فروليش ، أحد مخططي الاستعمار الفرنسي : « إنَّ كل أعدائنا كانوا تقريبًا من المسلمين » .

انطلاقًا من هذه الفكرة ، كثَّف المستعمر جهوده كلّها لاستئصال الإسلام ، ولما فشل في ذلك عمل لاحتوائه مستخدمًا مختلف الوسائل المتوفرة لديه ، ونذكر بعضًا من تلك الوسائل القمعية :

مراقبة المسلمين في حركاتهم وسكناتهم :

● لهذا الغرض وضعت الإدارة الأجنبية بطاقات استعلامات لـ « شخصيات سياسية ودينية متهمة بالقيام سرًّا بدعوة ضد فرنسا وأوروبا ، وتُظْهر قابلية في زمن ما لخلق صعوبات لنا ، أو لتحويل قسم من السكان عنّا ، وذلك بسبب ثقافتها وعلاقاتها وثروتها ، أو بسبب

نفوذها الذي اكتسبته بفضل دعوتها الملتهبة »[١٣] .

وكانت الإدارة الاستعمارية قد قسمت الطائفة الإسلامية في السنغال إلى فئات :

* فئة لا ترى مناصًا من الدخول في عراك معها لتحطيمها وإبعاد شرها .
* وأخرىٰ لا تثق بها لكنها لا تمثل خطورة كبيرة ، ولكن يجب أن تظل مراقبة .
* وفئة ثالثة لا خوف منها ولا تتوقع منها شرًّا .
* ورابعة تعتمد عليها فتستغلها لأغراض إدارية وسياسية .
* وخامسة تعتبرها خطرة جدًّا يتحتم إبعادها عن البلاد لاتقاء شرها .
* وأخيرًا فئة صالحة ـ بنظرها ـ تستحق التشجيع لقبولها التعاون معها ، فكافأتها بالأوسمة والألقاب .

مراقبة المؤسسات الدينية الإسلامية :

حدَّدت الإدارة الاستعمارية نطاق إنشاء المساجد ، فكانت لا تسمح ببناء مسجد إلاَّ لأفراد يحظون بثقتها ، وهم القلة بطبيعة الحال ؛ وكان الاستعمار يخاف من المسجد خوفه من سائر المؤسسات الإسلامية ، فبناء مسجد يعتبر وسيلة لتقدم الإسلام ، ولم يخف « فيدريب » تبرمه سنة ١٨٥٥م من هذا التقدم : « إنَّ الإسلام لدى السود أمر معرقِل أمامنا . . . لكن في النهاية إن وُجِدَ المسجد ، فلا رجوع لنا بعدئذٍ » ، وفي الحقيقة ، كما يقول الراهب[١٤] : « إنَّ من بين الشيوخ في (سانت لويس) عددًا كبيرًا يربون الأطفال على كره العمل والبيض » .

---

(١٣) « فليام بونتي » كان حاكمًا عامًا لفرنسا في السنغال .

(١٤) يقصد به راهب مدينة سانت لويس ، وكانت هذه المدينة العاصمة للإدارية للسنغال قبل عام ١٩٥٩م .

امتدت يد الاستعمار إلى المحاكم الشرعية للتلاعب بها ، وذلك بإنشاء محكمة إسلامية صورية استندت إلى شخص واحد ، قال في شأنه « فيدريب » : « لا أجد اليوم من المسلمين إلاَّ فردًا يوحي إليَّ بالثقة الكاملة . . . أعتقد أنه من الأحسن أن تراجع السلطة العليا المستعمرة أحكام المحكمة الإسلامية » .

أما عن التضييق على المؤسسات التعليمية فحدِّث ولا حرج .

كان هدف المستعمر ضرب الحصار على السنغال حتى لا تتأثر بما يحدث بأقطار إسلامية خارج نطاق مستعمراته ، لأنه كان يخشىٰ من بلورة فكرة الجماعة الإسلامية على المستعمرة . فأقدم على عزلها عن العالم الخارجي ، مما دفعه إلى اختلاق ما يسميه بـ (الإسلام الأسود) ولكن لم يكن متيسرًا تحويل تيار ديني وثقافي دون القيام بعمل مضاد لهذا التيار ، لذلك نهضت فرنسا بإنشاء مدارس[١٥] تنافس مدارس المسلمين ومجالسهم ، ولكنها كانت ـ كما قال أحدهم ـ : « تستهدف غرضًا آخر غير أهداف مدارس المسلمين المعارضة دائمًا ، والسائدة في الزوايا ولدى الشيوخ ؛ وهذه هي وحدها الموجودة حتى الآن في الميدان » ولم تترك لتلك المدارس المعارضة للمدارس الأهلية أدنى حرية لأنَّ هدفها كما حدَّده فريقه هو : « توجيه النفوذ الذي يمارسه المسلمون المتعلمون على إخوانهم في الدين لصالح السياسة الفرنسية » وفي الواقع فإن كلمة « العربية » في اصطلاح المستعمر عادلت لفظة الإسلام ، ولا عجب حينئذٍ أن تدخل اللغة العربية ، أي الإسلام ، في صراع مرير مع السلطات الاستعمارية من جهة ومع لغة المستعمر من جهة ثانية . واتخذت الإدارة الفرنسية إجراءات صارمة تهدف إلى تحطيم الإسلام

(١٥) كانت تلك المدارس قد بنيت في سانت لويس وبوتلميت وتمبكتو وغيرها . . .

ولغة القرآن ؛ إذ بدون تلاشيهما لا سبيل إلى تمكن الحضارة النصرانية في المنطقة ؛ وكان من جملة الأساليب التي سلكها المسؤولون الفرنسيون بهدف تحقيق ذلك : تقليص ظل المعاهد الإسلامية ، معاقل الإسلام ، فأصدروا قرارات جائرة للحيلولة دون أداء المدارس القرآنية وظيفتها التاريخية ، وقد عكست إجراءات الحاكم العسكري (فيدريب) هذا الحيف حين فرض سنة ١٨٥٧م على كل من يرغب في فتح مدرسة عربية أن يتقدم لامتحان خاصٍّ يهدف لمعرفة مستواه بهذه اللغة ، وذلك بدعوىٰ تحسين التعليم الإسلامي واختيار معلمين أكفياء . غير أن الهدف الحقيقي في الواقع هو الحيلولة دون انتشار لغة القرآن والقضاء عليها عن طريق فرض شروط مفرطة في التعقيد والصعوبة ، وانفضحت المؤامرة ، إذ لو كانت الإدارة الفرنسية ترغب حقًّا في تنظيم التعليم الإسلامي لشجّعت المدارس الإسلامية . ثم تلت ذلك القرار قرارات مجحفة حيث عُلِّق فتح مدرسة إسلامية بالحصول مسبقًا على إذن من السلطات الاستعمارية ، ورغم تملص (فروليش) صاحب كتاب (مسلمي أفريقيا السوداء) فإنه لم يجد مندوحة من الاعتراف بأن « الرخصة التي كان يخضع لها أُولٰئك الذين يترشحون لفتح مدرسة عربية مرفوضة أحيانًا ، حينما تظهر سوابق طالب الرخصة ممثلة خطورة للنظام العام » ولا يعني هذا الكلام سوى أن الرخصة مرفوضة لكل المسلمين ؛ لأنَّ الاستعمار كان يرتاب فيهم جميعًا ؛ إذ يمثلون في نظره خطورة على نظامه .

وللعلّة نفسها جهد الاستعمار في قطع كل صلة بين المتعلمين السنغاليين وبين مصادر الثقافة الإسلامية ، وكان يمنعهم من ممارسة النطق باللغة العربية والتعامل بها بأي شكل من الأشكال ، وبلغ من تعنته أن حاول استبدال اللغات المحلية في المجالس والمدارس باللغة العربية ، لهذا

الغرض توجه أحد كبار إدارة الشؤون الإسلامية إلى مدرسة في «سيغو» (جمهورية مالي اليوم) فعرض على الشيخ « ديمبا واغي » - مؤسس مدرسة عربية هناك - تغيير لغة التدريس عن طريق إلقاء الدروس باللغات المحلية ، وكان ردّ الشيخ بارعًا ومفحمًا ، إذ رفض الدخول مع الصليبي في مناقشات عقيمة ، بل طلب منه أن يأتي التطبيق منه وذلك بتدريس مادة ما أمام الطلبة ، فبهت الذى كفر[16] .

وفي نطاق تضييق الخناق على التعليم العربي الإسلامي ، جاء مرسوم يحدد الكتب التي يسمح بإدخالها إلى السنغال ، وهذه الكتب هي : المصاحف وبعض الأدعية الصوفية . فتعليمات الحاكم (فليام بونتي) سنة ١٩١١م قالت : إن كل نشرة « تمثل شكلاً معاديًا أو تكون مشجّعةً نشاط الشيوخ ، يجب تحطيمها ؛ إذ لا ينبني دورنا بطبيعة الحال على تشجيع نمو العقيدة الإسلامية ، ولا على مساعدة الجامعة الإسلامية بل العكس » و « ولا ينبغي بالخصوص أن يطلع الأفارقة المسلمون على ما يجري في شمالي أفريقيا والشرق الأوسط حتى لا تصل إليهم عدوى الأفكار الهدّامة من النهضة الإسلامية ، ونريد كذلك أن نبعد التشجيع على استخدام اللغة العربية » .

وظلّت المعركة حامية الوطيس بين الاستعمار والمدارس القرآنية ، ولم يحل ذلك دون ازدياد طلبتها باطراد بشهادة «مارتي» أحد أقطاب الاستعمار الذي قام سنة ١٩١٨م بإحصاء تلامذة المدارس العربية بمدينة (سانت لويس - SAINT LOUIS) السنغالية فوجدهم أضعاف أضعاف تلاميذ المدارس الفرنسية ؛ لكن بعد ثلاث عشرة سنة من هذا الإحصاء رجحت كفّة الميزان لصالح اللغة الفرنسية ، وتخليدًا لهذا الانتصار على اللغة

(١٦) ويذكر بهذا الصدد أن الشيخ عبد الوهاب دكري من أنصار هذه الفكرة سابقًا .

العربية كتب أحد المفتشين الفرنسيين للتعليم الابتدائي سنة ١٩٣٠م في تقرير يقول : « انهزمت المدرسة القرآنية »[17] .

وعندما ظهرت المدارس الحرّة في المرحلة الأخيرة من الاستعمار أولت الإدارة الفرنسية الاهتمام للمؤسسات التعليمية النصرانية ، وكانت تمدها بكل ما تحتاج إليه ، في حين كانت تحرم مدارس المسلمين من كل معونة ، وبلغ الأمر إلى حدّ استنكار بعض النصارى هذا الإجحاف والتنديد به ، فقد استنكر « ألبرتو فود جري » في كتابه : (أفريقيا الثائرة) تلك الممارسات بقوله : « إنَّ العدالة ليس لها حدود . . . وأقصد بقولي هذا خاصة المسلمين الذين تمنعهم السلطات من فتح المدارس ، وإذا سمحت لهم فإنها لا تدخل مدارسهم في باب المساعدات المالية الحكومية التي تعطى للمدارس النصرانية ، وإنها قضية إنصاف علينا مواجهتها بجرأة وشجاعة ، وإذا تجاهلنا أن الإسلام دين الأغلبية في أفريقيا السوداء وأكدناه بوسائل ملتوية فإن ذلك لن يكون بأي شكل من الأشكال في مصلحة أفريقيا والسلام »[18] .

مرحلة المرونة والتظاهر بالتعاون

لم تغير السلطات الاستعمارية موقفها العدائي للإسلام ، وإنما حوّرت تكتيكها كما قال «فروليش» : « منذ بداية دخولنا - بأفريقيا - طبقنا سياسة الرفق ، بعد ملاحظة أن أعداءنا كلّهم تقريبًا من المسلمين » ، ولكن

(١٧) انظر بهذا الصدد مقالاً للدكتور « أمادو كامارا » نشر في جريدة (لوسولي LE SOLEIL سبتمبر [أيلول] ١٩٧٢م) .

(١٨) (أفريقيا الثائرة) « ألبرتو فود جري » : تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز .

كانت الإدارة الأجنبية مضطرة إلى الليونة لحاجتها إلى خدمات المسلمين في إدارة مستعمراتها ؛ لأنَّ الإداريين العسكريين الذين كانوا في شمالي أفريقيا سابقًا يجدون سهولة في التعامل مع المسلمين بينما يلاقون نفورًا طبيعيًا مع الأرواحيين ؛ من أجل ذلك يقول (فروليش) : « بحثنا عن زعماء لديهم لمساعدة أعمالنا الإدارية فلم نجد ـ بسبب الاستحالة ـ سوى مسلمين ؛ فاضطررنا إلى الاعتراف بهم في المجتمعات التقليدية غير الإسلامية » .

وظلت معاملة الاستعمار للمسلمين متأرجحة بين الصعود والهبوط ، بين القسوة والليونة ، تبعًا لسياسة الحكومات الفرنسية المتباينة وشخصية الحكام العامين الذين يديرون البلاد .

ففي بداية الاستعمار ، كما يقول (فروليش) ، كانت العلاقة بين الإسلام والاستعمار في السنغال تتسم بالعنف الشديد والعداوة المستحكمة المتبادلة بين الطرفين ، ولم تنجلِ غيوم الصراع المسلح بينهما إلاَّ في مستهل القرن العشرين ، وكان من جملة من حمل المستعمر السلاح ضدهم الحاج عمر الفوتي والشيخ مابا جاخو ، وفودي كبا ، وأحمد الشيخ ، ومحمد الأمين درامي وعشرات غيرهم ممن فازوا بشرف الاستشهاد ، إلى جانب أعداد وافرة من المسلمين كان نصيبهم النفي خارج السنغال لسنين طويلة ، أو التنكيل بهم .

الجانب الذي استفاد منه الإسلام من حركة الاستعمار

وفي مرحلة متأخرة ، فهم المستعمر أنه رغم انتصاره العسكري ، ونفيه وتنكيله بزعماء المسلمين ، لم يتمكن من احتلال قلوب الشعب

السنغالي ، وأنه لن ينجح في توطيد سلطانه وسلطاته دون الاستعانة بفئات ذات نفوذ في المجتمع السنغالي ، خصوصًا وأن اختفاء القيادة الأرواحية لم يفض إلى بروز زعامة جديدة في محيط الأرستقراطية الأهلية ، لأنَّ هذه الأخيرة ، كما يقول « بول مارتي » :

« قد أفل نجمها بقوة حقيقة الإسلام وبمزايا ونزاهة الشيوخ » بل نجم عن سيطرة فرنسا على البلاد : التفاف العامة حول الزعامات الدينية الإسلامية ، لا سيما وأن الغزو الاستعماري أشبَهَ إلى حدّ بعيد نظام وأسلوب (تيدو) من حيث إشعال النار في القرىٰ ، وتعذيب المقاومين ، وإتلاف المحصولات ، مما جعل الشعب يضمر البغض للمستعمر ؛ ولكي تصل الإدارة الأجنبية إلى مرماها ، وتحقق هدفها ، تظاهرت بالمرونة أحيانًا ، فتقربت إلى بعض المسلمين للاستعانة بهم في إدارة مناطق وأقاليم غير إسلامية ، وكانت في ذلك مضطرة ، لأنَّ المسلمين كانوا يقومون بدور الترجمان ، فضلاً عن أن « الزعيم المسلم كان ذا نفوذ ، ويلبس على شاكلة القائد الجزائري ، فهو فارس ماهر ، يحيط به الجنود والحرس والحاشية ؛ أما الزعيم الوثني ـ إلاَّ ما ندر ـ فشخصية غامضة »[١٩] .

فعبر الموظف ، سواء على رأس المقاطعات أو في المصالح الإدارية الأخرىٰ ، استطاع الإسلام أن ينفذ إلى مناطق لم يكن قد وصلها من قبل ، وساهم تطور وتوفر وسائط المواصلات وسهولة الاتصالات ، إضافة إلى ظهور المراكز الحضارية والتجارية والقرى الفلاحية وحركة (سورغا) في عملية انتشار الإسلام .

(19) FROLECHE: LES MUSULMANS D'AFRIQUE NOIRES.

دور المواصـــــــلات

تجدر الإشارة إلى أنَّ الوظائف الثانوية كانت متوفرة ، وأُسندت في الأغلب الأعم إلى موظفين مسلمين ، إما لأنهم يعرفون قراءة وكتابة الحروف العربية أو اللغة العربية نفسها ، وإما لأنهم يتقنون لغة المستعمر ، وكان من دأب هذا الموظف أنه أينما حلَّ وارتحل يتأبط سجادة ويحمل معه (مقراجًا)[٢٠] . وأحيانًا يتم تعيينه في مناطق بعيدة في أوساط جماعات غير إسلامية ، تعجبها رؤية شخص من بني جلدتها تختلف معه من حيث الهندام والمستوى الاجتماعي : فهو يرتدي ملابس نظيفة جميلة ، ويعيش في بحبوبة من العيش ، ويقرأ الكتب ، ويكتب على الورق ، ويتحاور مع البيض الأجانب . . . ورقي المسلم الاجتماعي هذا أحدث نوعًا من عدم الرضا عن النفس لدى الأرواحي ، وجعله يتطلع إلى وضع اجتماعي يماثل وضع الموظف المسلم الذي لا يختلف معه في اللون والتركيب الجسماني في شيء .

ومن هنا كان نور الإسلام يغزو نفس الأرواحي ، فتصبو إليه ، وتنجذب نحوه ، ولا تمر فترة من تعرفها على الديانة الإسلامية حتى تستجيب لندائها وتنضوي تحت لوائها .

وكانت سهولة المواصلات ذات أهمية بالغة ؛ إذ بفضلها استطاع هذا الموظف الجندي في خدمة الإسلام أن يتصل بالأرواحي ويبلغه الرسالة الإسلامية في المناطق النائية : ففي جنوبي السنغال (كازا مانسا) دخل

(٢٠) المقراج ، أو المقرج : آنية على شكل البراد ، تستخدم للوضوء ولتسخين الماء قبل صبّه في البراد لتهيئة الشاي (موريتانيا والمغرب) وتستعمل لأغراض أخرى .

العديد من الناس في دين الله بواسطة موظفين لا تزال آثار نشاطهم واضحة المعالم بوجود أشخاص يحملون أسماء عائلية غير أصيلة في المنطقة ، ذلك أن المسلمين الجدد حملوا إثر دخولهم الإسلام ، الأسماء العائلية للأشخاص الذين أدخلوهم في الديانة الإسلامية .

فمع ظهور السكك الحديدية ، والسيارات والدراجات والبواخر . . . أخذت الدعوة الإسلامية أبعادًا جديدة وأهمية قصوىٰ ، وأصبح من الميسور على الداعي التنقل بسرعة ويسر وأمن لمقابلة غير المسلمين في مناطقهم ، وانطبق المثل القائل « مكرهٌ أخاك لا بطل » على الإدارة الاستعمارية التي كانت بأمسّ الحاجة إلى حركة تجارية نشطة تساهم في ترويج البضائع الواردة من الـ « ميتروبول » وتسهل توزيعها على مختلف الأقطار المستعمرة ، فمدت سكك الحديد ، وعبَّدت الطرق وشجّعت تجارة المتنقلين (جولا DIOLA) الذين كثَّفوا كعادتهم نشاط التبليغ .

لم تكن المرافىء أقل شأنًا من وسائط المواصلات السابقة الذكر ، حيث يزدهر النشاط التجاري وتكثر الخدمات المختلفة فيها فينجذب إليها عدد كبير من شباب كان قد غادر محيطه القروي الأرواحي بحثًا عن عمل ، سواء خلال فترة فصل الجفاف الممتد من شهر ديسمبر [كانون الأول] إلى نهاية يونيو [حزيران] ، أو خلال سني القحط والمجاعة ؛ ففي هذه المرافىء يجد الشباب الأرواحي نفسه في أحضان عالم جديد عليه ، منظم منسّق ، يغاير عالمه الأرواحي الضيّق الحدود . ففي بداية اتصاله به يلازم جانب الحذر ويقوقع نفسه في دنياه الخاصة ، فلا يشارك الناس - المسلمين - حياتهم الروحية ولا ما هم فيه ، ويشعر حينئذٍ بفراغ روحي وعزلة اجتماعية كاملة لا عهد له بها ، فلا يبرح يحاول كسر قيود الأرواحية التي صارت مهلهلة ، فيضطر إلى البحث عن جماعة دينية

تكون وسيلة لتحطيم الأسوار المحيطة به ، وتكون تأشيرة لدخول المجتمع الذي يعيش في وسطه ، وفي وضع السنغال لم يجد المهاجر الأرواحي نحو المرافىء جماعة لائقة له أكثر من الجماعة الإسلامية باعتبارها الأقوى عددًا والأقرب إلى نفسه . .

تأسيس مـدن عصريّـة

اقتضت طبيعة الأسس التي انبنى عليها نظام الاستعمار ـ بجانب استغلال ثروات المستعمرات ، وتسخير أهلها ، وإيجاد سوق محلية تستوعب السلع المصنعة الفرنسية لمستهلكين في المستعمرات ـ : إنشاء مرافق عامة مهيئة لاستقطاب مختلف النشاطات التي ظهرت بعد تطور المرافىء ووسائط النقل المختلفة ؛ من هنا برزت المدن العصرية حول تلك المرافق ، وأصبحت خلية حيَّة ، ومحور الحركة التجارية والإدارية ، وملتقى عناصر وأجناس عديدة ؛ على أنَّ العنصر الإسلامي كان قطب الرحى في مدن السنغال ، مما جعل تأثيره على الطوائف الأخرى بالغ الأهمية ، خصوصًا الشاب الذي غادر محيطه القروي بكل ما يرفل به من عقائد بالية ، وطقوس أرواحية ، وعادات وتقاليد يمجّها الذوق السليم ، ليستقر في محيط متحضر مغاير ، حيث تقلّ فرصة ممارسة التقاليد المطبقة في القرية ، بينما يرى النَّاس حوله يجتمعون ـ على الأقل ـ خمس مرَّات كل أربع وعشرين ساعة للصلاة ، ويشاهد تجمهرهم في مناسبات دينية أخرى ، مثل : صلاة عيدي الفطر والأضحى ؛ والاحتفالات التي تقام بمناسبة ذكرى المولد النبوي . . .
وتجدر الإشارة إلى أن جوّ البهرج والتظاهر يبهر الإنسان السنغالي

ويخلب قلبه ، فما بالك إذا كان يشعر بالعزلة ويلاحقه الذعر والقلق بفعل ابتعاده عن الأشياء التي يعتقد أنها مانعته من غضب مظاهر الطبيعة !!

لذلك كلّه نجد الشاب الأرواحي المهاجر إلى المراكز الحضرية الحديثة ينجذب نحو الإسلام ؛ التماسًا للسلام ، وانسلاخًا من عزلته الاجتماعية ، ومحاولة لنزع غلالة الحصار الاجتماعي الذي فرضه عليه معتقده الأرواحي . . .

إذن فالانفلات من العزلة ، والبحث عما يصون من عوادي الطبيعة ، والانتفاع بمزايا العضوية في دين ذي انضباط واتساع كبير حمل المهاجر الأرواحي على اعتناق الديانة الإسلامية ، ليست لأنها مجرد بديل فحسب ولكن لأنها الوسيلة الأفضل للاندماج بيسر في المجتمع الحضري السنغالي والانفتاح على آفاق أوسع . . .

الرمـــاة السنغــــاليون[٢١]

ولا يحسن إهمال الجيش الذي كوّنته فرنسا من أبناء مستعمراتها المعروف بـ« الرماة السنغاليين » في نشر الإسلام بغربي أفريقيا الفرنسي كلّه ؛ إذ كان هذا الجيش يضم عناصر مختلفة من القبائل ، لا تجمع بينها أية أواصر من أي نوع كان ، باستثناء العناصر المسلمة ، فإنها كلما التقت

(٢١) تجدر الإشارة إلى أن هذا الجيش تكوّن أثناء الحرب العالمية الأولى ، وساهم نائب السنغال في المجلس الوطني الفرنسي يومذاك « بليز جانج » في جمع المتطوعين ، خلافًا لرأي الحاكم العام في السنغال الذي كان يعارض ذلك بحجة أن الحرب لا تعني الأفريقيين في شيء . . . وهذه التسمية لا تعني أن ذلك الجيش مكوّن من جنود سنغاليين فقط ، ولكنه مزيج من مختلف جنسيات المستعمرات الفرنسية في غربي أفريقيا وشرقيها .

تعارفت وتآلفت ونسجت بينها علاقات منظمة ومنسقة ، ترتب حياتها الدينية داخل الثكنات ، الأمر الذي كان يثير إعجاب غيرها من الجماعات غير المنضوية تحت لواء دين سماوي ، فاستطاع الجنود المسلمون ، بفضل نظامهم المتميز ، أن يُدخلوا عددًا كبيرًا من الأرواحيين في الإسلام ؛ ومما سهل مهمة الجماعة الإسلامية في الجيش الفرنسي أن الأرواحي كان محل سخرية وتهكم لسذاجة عقيدته ، وغياب أدنى ضابط لذلك .

تغيير نظام الإنتاج

على أن تغيير نظام الإنتاج بإدخال أسلوب نشاط اقتصادي ، أساسه : النقد والسوق ، وتبديل المواد المزروعة تقليديًا بمزروعات تهيأ أساسًا للتصدير ، ساهم في بلورة الدعوة الإسلامية . فحينما أدخل المستعمر زراعة الفول السوداني ، وشجّع الهجرة الموسمية إلى المناطق المعروفة بإنتاجه من أقطار كثيرة إلى السنغال ، تمَّ خلال ذلك احتكاك العناصر غير الإسلامية بالمسلمين فأسلم العديد منها .

الكنيسة النصرانية في السنغال

ما دام الحديث يدور حول الاستعمار ، فلا مندوحة من التعرض للكنيسة باعتبارها ربيبة له ، إذ مهما حاول رجال الكنيسة اليوم في السنغال نفي ارتباط مؤسستهم الدينية بالاستعمار فإنَّ الوقائع والأحداث التاريخية تؤكد وجود صلة بينهما . . .

ولعلَّ القاسم المشترك بينهما فيما يخص الإسلام هو سعيهما الحثيث لتشويهه ، بعد أن تأكدت استحالة تحويل المسلم السنغالي عن دينه .

ولم ترض الكنيسة للسنغاليين بدين سوى النصرانية ، الأمر الذي كان القرآن الكريم - قبل أربعة عشر قرنًا - قد نبَّه إليه ، وأن النصارى يعملون للقضاء على دين الله عزّ وجل ، وتحويل المسلمين إلى النصرانية :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة : ١٢٠) ، وهذا (روبير أرنود ROBERT ARNAUD) يكرر اللهجة ذاتها « لا نعترف في أفريقيا الغربية إلاَّ بسلوك أخلاقي واحد ألا وهو سلوكنا » أي : السلوك النصراني . وقد طلبت النصرانية من المسلمين من قَبْلُ أن يتحولوا عن دينهم إن أرادوا هدىً :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾ (البقرة : ١٣٥) ، ويقول محمد أسد ، وكان مستشرقًا نمساويًا اهتدى إلى الإسلام : « لا تجد موقف الأوروبي موقف كره في غير مبالاة فحسب ، كما هي الحال من موقفه من الأديان والثقافات غير الإسلامية كلها ، بل كره عميق الجذور ، يقوم في الأكثر على حدود التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقليًا فقط ولكنه يصطبغ بصبغة عاطفية قوية »[٢٢] .

وخليق أن نلاحظ أن أغلبية المسلمين في السنغال تجهل ما يضمره غيرهم من أتباع التثليث للإسلام من حقد ، يستوي في هذا الحقد النصراني الأوروبي ، والنصراني السنغالي ، ومما يساند هذه المقولة ما جاء في تحقيقات أجراها العالم الاجتماعي « بيير فوجيرولاس - PIERRE FOGEUROLLAS » حول موقف المسلمات السنغاليات من النصرانية

---

(٢٢) مجلة جوهر الإسلام التونسية العدد الأول سنة ١٩٧٤م .

ومؤقف النصرانيات من الإسلام ، فتبين « أن ثلاثة أرباع المسلمات صرحن أن النصرانية والإسلام يتجهان إلى إله واحد ، وأن النصارىٰ مع الأسف يجهلون الرسول محمداً ﷺ ؛ وبالمقابل ، اتهم ربع النصرانيات وأعضاء أديان أخرىٰ المسلمين بالكذب والنفاق »(٢٣) . وتعليل الباحث موقف النصرانيات بكونهن ينتمين إلى الأقلية الدينية في البلاد . . . تعليل لا يقنع أحدًا ، لأنَّ موقف النصارى من الإسلام له خلفية غير مجرّد الانتساب إلى الأقلية ، إذ لو قلبنا الصورة فأجري التحقيق في بلد لا تشتكي النصرانية فيه قلة عدد لما تغيرت النتيجة .

فتحقيقات «فوجيرولاس» هذه تفند مزاعم القائلين بنزاهة النصراني وصفاء طويته ، لقد صدق الحق سبحانه وتعالى ؛ حيث كشف عن أعداء دينه :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ (البقرة : ١٠٩) .

وأما قذف النصرانيات السنغاليات المسلمين بالكذب والنفاق فليس بدعًا في سجل علاقة الإسلام بالنصرانية ، فقد تعرَّض النبي الكريم عليه الصلاة والسلام للشتائم في العالم النصراني ، وساهم في ذلك النصارىٰ بمختلف مشاربهم ، وعبر العصور ، من ذلك ما كتبه «فولتير» سنة ١٧٤٥م في مسرحيته التي سماها (محمد ـ أو التعصب) وقذف فيها الرسول ﷺ بأقذع الشتائم ؛ والأدهىٰ من ذلك كله ، أن «فولتير» قدم المسرحيَة هذه إلى بابا روما مخاطبًا إيَّاه : « فلتغفر قداستك لعبد خاضع ، من أشدّ النَّاس إعجابًا بالفضيلة ، إذ تجرّأ فقدم إلى رئيس الديانة

(٢٣) بيير فوجيرولاس : أين يتجه السنغال ؟ OUVA LE SENEGAL ، وكان فوجيرولاس هذا مديرًا للمعهد الأساسي لأفريقيا السوداء في بداية السبعينيات .

الحقيقية (كذا) ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية (كذا) أستطيع أن أوجّه بنقدي قسوة نبي وأغلاطه (كذا) فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قداستك الكتاب ومؤلفه ، وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة ، وإنني مع الإجلال العميق أجثو وأقبِّل قدميك القدسيتين ـ فولتير ١٧ أغسطس [آب] ١٧٤٥م » .

يستغرب مثقفون معجبون بـ«فولتير» أن تصدر عنه مثل هذه السخافات ، معتبرين إيَّاه مفكّرًا حرًّا ، في حين أن الأمر طبيعي وعادي في علاقة النصرانية بالإسلام ، لأنَّ «فولتير» وأمثاله ليسوا أحرارًا إلاَّ بالقدر الذي تسمح به ثقافتهم النصرانية المفعمة بالحقد على الإسلام . . . ويلاحظ توفيق الحكيم بمرارة أن «روسو» لم ينصف رسول الله عليه الصلاة والسلام : « علمت ـ يقول توفيق الحكيم ـ في ذلك أن (روسو) كان يتناول بالنقد أعمال (فولتير) ، فاطّلعت على ما قاله في قصة محمد ﷺ علَّني أجد ما يرد الحق إلى نصابه فلم أر هذا المفكر الحر أيضًا يدافع عمَّا أُلصق به كذبًا ، وكأنَّ الأمر لا يعنيه ، وكأنَّ ما قيل في هذا النبي ﷺ لا غبار عليه ولا حرج فيه . . . »(٢٤) .

أما هجوم النصرانية علنًا على الإسلام أيَّام الاحتلال الاستعماري فقد تجاوز الحدّ ، ولعلَّ ذكر بعض تصريحات أسقف مدينة داكار في ذلك العهد يكفي دليلاً على ما نقول ، كتب (لو فيفر ـ LE FEVRE) سنة ١٩٥٣م في صحيفة (إكليسيا ـ ECCLESSIA) قائلاً : « إما أن تتبع أفريقيا أهدافها البعيدة بالبساطة والنزاهة والتدين وتعتنق النصرانية ، وإما أن تؤكد نفسها خارج الأديان ، تحت تعدد الزوجات الحقير ، وسيطرة الضعف والتشاؤم فتلقي بنفسها في أحضان الإسلام . . . إنَّ الدين النصراني هو وحده الذي

(٢٤) تحت شمس الفكر : توفيق الحكيم .

يطالب باحترام البسطاء »[٢٥] .

غير أنَّ ما كان يحققه الإسلام أصبح مثار امتعاض للأسقف ، فنغص عليه حياته إلى حدّ الاختناق والهوس ، فزعم في مقالة أخرىٰ كتبها سنة ١٩٥٩م أن أفريقيا السوداء ساقطة لا محالة في يد الشيوعية إذا اطّرد زحف الإسلام فيها : « يصبح تدخل روسيا في أفريقيا حقيقة يومًا بعد يوم ، وذلك أمر غير متوقع بالنسبة لأولٰئك الذين لا يفهمون الإسلام جيدًا ، فالدول التي فيها أغلبية مسلمة هي التي تنفصل بسرعة عن الغرب وتستورد الأساليب الشيوعية التي تشبه إلى حدٍّ بعيد الأساليب الإسلامية : التعصب والاشتراكية والعبودية ، كل ذلك من تقاليد الإسلام (كذا) ، وبالعكس ، تقاوم الدول التي فيها أغلبية نصرانية بفعاليةٍ الشيوعيةَ وتظل كذلك مرتبطة ارتباطًا قويًا بالغرب . . . ويقدم السنغال حالة نادرة »[٢٦] .

لا حاجة إلى تفنيد ادّعاءات الأسقف «لو فيفر» بذكر الدول التي تحوَّلت إلى الشيوعية ؛ ولكننا نريد بيان مدىٰ الحقد الذي تكنّه الطائفة النصرانية للإسلام .

وقد استمرت حملة الكنيسة على الدين الإسلامي بعد أن نال السنغال استقلاله ، وزادت حدّتها إثر ظهور بوادر صحوة إسلامية في السنوات

(٢٥) و (٢٦) مونتي : الإسلام الأسود ص : ١٩٤ ، وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ إبراهيم نياس رحمه الله كان الوحيد ـ على ما نعلم ـ بين شيوخ السنغال الذي قام بالرد على الأسقف ، وكذلك الدكتور « سيري لي » ولم تبق إذاعة باماكو ـ جمهورية مالي ـ مكتوفة الأيدي حيث ردت على الأسقف ردًّا مفحمًا . على أن الحملة ضد الإسلام لم تعرف هدنة إلى يومنا هذا ، فقد صرح حديثًا « غونيو تسكي » وزير الداخلية الفرنسي السابق في ٢٠ مايو ١٩٨٥م بمناسبة انتخاب مسلمين بمجالس بلدية في فرنسا بأن الإسلام دين تأخر وجمود ، ذلك خلاف اليهودية والنصرانية ، من أجل ذلك يرفض قبول المسلمين في المجتمع الفرنسي .

الأخيرة ، والنصرانية تتخوف من مغبّة نجاح أي ازدهار إسلامي بالسنغال ، فهكذا دقّت ناقوس الخطر لدى وجود ظاهرة عزوف الشباب المسلم عن الحضارة الغربية النصرانية « فقد ظهرت ـ أي الصحوة الإسلامية ـ حتى في الملابس ؛ باعتبارها شكلاً من أشكال رفض الغرب (. . .) ويقرب اللباس التقليدي إلى المظهر العربي ، أي : إلى المسلم الحقيقي ، وهو مفضل على البذلة الأوروبية (. . .) ويواظب الشباب المسلم على تعهد أماكن العبادة ويقرأ القرآن ويحاول أن يعيش عقيدته »[٢٧] .

وتعتبر النصرانية الصحوة الإسلامية جريمة ترتكب ضدّها ، ويفقد الناطق بلسانها السيطرة على نفسه حين يتأكّد من وجود تيّار إسلامي جارف يجتاح السنغال ، ويلاحظ بمرارة أنه « في كل عيد نصراني أو علماني ، يجهدون أنفسهم ـ أي قادة الحركات الإسلامية ـ من أجل تعبئة المواطنين لتأكيد عقيدتهم ، ففي أعياد مثل ٢٤ و٣١ ديسمبر [كانون الأول] ـ التي يحتفل فيها النصارى بأعياد الميلاد بالعربدة والسكر ـ يدعون الشباب المسلم إلى إحياء تلك الليالي في العبادة معهم »[٢٨] .

والأدهىٰ في هذا الأمر أنَّ النصارىٰ لم يكترثوا يومًا من الأيام بأعياد المسلمين ، علمًا بأنَّ منطق الأشياء يفرض عليهم ذلك نظرًا لكونهم يمثلون أقليَّة في البلاد ، بينما هم يريدون أن تظل أعيادهم العديدة أعيادًا

(٢٧) الأسبوعية المسيحية : أفريك نوفيل AFRIQUE NOUVELLE عدد ١٨١٤ بتاريخ ١٧/٤/١٩٨٤م

(٢٨) ومما يستحق إثباته هنا للتاريخ أن ٩٥٪ من أعضاء مجلس الأمة استنكفوا التصويت على القانون الذي يعتبر رأس السنة الهجرية عيدًا رسميًّا ، بحجة حيادهم بخصوص الشؤون الدينية ، فلم يصوت على مشروع القانون هذا إلاّ عدد يسير ، علمًا أن ٩٨٪ من النواب يدّعون الانتماء إلى الإسلام .

وطنية يحتفل بها الداني والقاصي ، لذلك يتذمرون من انصراف المسلم عن الاحتفاء بعيدي الفصح والخمسين ، بل يكابرون أن ينكر المسلمون إثبات الأعياد النصرانية العديدة في التقويم الرسمي . ولا يكفيهم أنَّ الدوائر الحكومية تتعطل في جميع الأعياد النصرانية على كثرتها ، في حين لم يصبح رأس السنة الهجرية عطلة رسمية إلاَّ سنة ١٩٨٣م (!!) .

وكما كان الوضع في عهد الاستعمار ، فإنَّ الكنيسة لا تزال تحلم بأن تبقى الصلة منقطعة بين السنغال والعالم الإسلامي ، وترى أنَّه ليس من حقِّ المسلمين السنغاليين تنمية علاقاتهم بإخوانهم في العقيدة ، بل تنعى على بوادر التعاون التي بدأت تظهر في الأفق بين مسلمي هذا البلد وبني دينهم « فأدَّت ـ أي الصحوة الإسلامية ـ إلى توسيع نطاق نفوذ العالم الإسلامي في المجتمع السنغالي ، خصوصًا وأنَّ العرب يقومون ببناء المساجد وتقديم المنح » .

وأكبر ما يقضّ مضاجع الطوائف النصرانية في السنغال من الصحوة الإسلامية كونها ذات مضمون شمولي ، وكونها تهدف إلى تصفية الدين الإسلامي مما علق به من بدع وشوائب وترهات ، وإلى تنظيم المجتمع على أسس العقيدة الإسلامية السمحاء « نالت ـ أي الصحوة الإسلامية ـ نتائج لدى الأسر ، حيث أصبح سلوك الفرد فيها مبنيًّا على تعاليم القرآن ، بدرجة يرقب معها الآباء تصرفات أبنائهم ، وبدأت الأصوات تتعالى بشكل مستمر تدعو إلى تحريم إعطاء الرخص لاستيراد الخمور وإلى إقفال أبواب المراقص ودور اللهو »[٢٩] .

على أنَّ المتتبع لأحوال الأقلية النصرانية ومجالات نشاطها يجد أنها لا تتناسب مع حقيقة وضعها « الديموغرافي » ؛ فهي تراقب قطاعات

---

(٢٩) أفريك نوفيل ، العدد المشار إليه سابقًا .

حيوية هامة في ميدان التربية والتعليم والنشاط الاجتماعي .

تملك الطائفة النصرانية في السنغال مئات المدارس من ابتدائية وإعدادية وثانوية منتشرة في المدن والقرى ، وتستلم من أجل تسييرها مساعدات سخيَّة من الدولة منذ أيَّام الاستعمار ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وعلى سبيل المثال : حصلت المدارس النصرانية عام ١٩٨٤م على ما يزيد قليلاً على (٥٥) مليون فرنك أفريقي من أصل (٧٥) مليون فرنك قدّمتها الحكومة لمساعدة المؤسسات التعليمية الحرة ، عدا ما تتلقاه من المنظمات النصرانية العالمية ، الأمر الذي جعل مدارسها أفضل تجهيزًا وأكثر ازدهارًا من أية مؤسسات تعليمية أخرى في البلاد كلّها .

تأسست تلك المدارس مبدئيًا لاستقبال أبناء النصارى ليتلقوا فيها مبادىء ديانتهم إلى جانب المواد الأخرى المقررة في المدارس الرسمية ، لكنها بحكم ما لها من إمكانية ، وما تتصف به ـ صدقًا أو كذبًا ـ من فاعلية وكفاءة ، تمتلىء بأبناء المسلمين ، فالناشئة الإسلامية التي تتعهد المدارس النصرانية ، إن لم تعتنق النصرانية على مقاعد تلك المؤسسات التعليمية فإنها تُلقن فيها ما من شأنه أن يخلق في نفسها البلبلة وروح الكراهية للإسلام ، ويبعدها عن كل ما يمتّ بصلة إلى عقيدة آبائها ، وهذا مكسب هام للكنيسة لأنَّ المهم كما يقول القس (زويمر) : « ليس هو تنصير المسلمين ، ولكن الهدف الأساسي يجب أن يتركّز على تشكيكهم في دينهم وزعزعة معتقدهم ؛ وهذا في حدّ ذاته يكفي »[٣٠] ، ويقول (فال شاتليه) : « لا شكّ أن إرساليات التنصير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس متبعيها ، ولكي يتم لها ذلك يجب أن تبث أفكارها عن طريق نشر اللغات الأوروبية

وتسريب ما تريده من أفكار إلى العالم الإسلامي[٣٠] » .

للدافع نفسه تراقب الكنيسة عن كثب النشاط الكشفي في السنغال ، باعتبار المنظمة الكشفية السنغالية تابعة لها ؛ تضع قوانينها ، وتشرف على سيرها مباشرة ، وتوجهها حسب مشيئتها ، نظرًا لكون الحركة الكشفية السنغالية من أهم تنظيمات النصارى الأساسية ؛ ولا يخفى على أحد حينئذٍ خطورة استيلاء الكنيسة على جهاز يقوم بتوجيه وتكوين النشء الإسلامي . ويلاحظ أن الهيئات النصرانية تهتم بالشباب المسلم ، حتى المجلات الأسبوعية التي اقتطفنا بعض فقراتها لا تعتني باتجاهات المسلمين الذين جاوزوا مرحلة الشباب بل تبكي على الشبيبة الإسلامية التي - في زعمها - في طريق الإفلات من قبضة الكنيسة وتنظيماتها .

يضاف إلى ما سبق أن الكنيسة النصرانية تملك عددًا من مرافق الخدمات الاجتماعية من مستوصفات ومراكز صحية ومؤسسات خيرية تقدم العلاج وتعلم المهن النسوية ، وتؤوي المعوزين مقدمة لهم العلاج ، وأحيانًا التعليم ، الأمر الذي يسهل لها الاحتكاك والاتصال المباشر بأبناء المسلمين ، ثم تبنيهم وتنصيرهم[٣١] .

خلا النشرات الدورية التي تعكس وجهة نظر مختلف الطوائف

(٣٠) محمد عبده يماني : الشرق الأوسط ١٩٨٥/٥/٢٧م .

(٣١) نذكر بهذا الخصوص قصة عثمان دان جا OUSMANE DAN DIA التي جاءت في الصحيفة النيجيرية « ساحل SAHEL » العدد رقم ٤٢٨ بتاريخ ١٩٨٥/١١/١٥م . وملخصها أن عثمان غادر قريته بعد أن سيطر عليها الجفاف بحثًا عن لقمة عيش ، فألقى عصا التسيار بمدينة « مارادي » حيث استضافته بعثة تنصيرية بروتستانتية ، لم تكتف بضيافته فقط ، وإنما قبلته في إحدى الورشات التابعة لها ، حيث تدرب عثمان على فن الإسكافة حتى أتقنه ، وكان خلال فترة التدريب محل عناية خاصة من لدن أعضاء البعثة ، الذين ما زالوا يزينون له النصرانية ويغرونه بها ، حتى وقع أخيرًا في حبائلهم ، فتنصر مقابل لقمة عيش وفرتها له الإرسالية التنصيرية .

النصرانية الموجودة في السنغال ، تملك الكنيسة الكاثوليكية صحيفة أسبوعية ذائعة في غربي أفريقيا كلها هي (أفريك نوفيل AFRIQUE NOUVELLE) وتصدر بمدينة داكار باللغة الفرنسية ، وتعكس وجهة نظر الأقلية النصرانية ، وتركز هجومها على الإسلام والمسلمين ، وقد استساغت ذلك لأن الجو مناسب يمكّنها من أن تبيض وتصفر طالما لا تملك الجماعة الإسلامية حولاً ولا طولاً للقيام بالردّ على اعتداءات الصحف النصرانية . ونشير بهذا الصدد أنه ثارت ثائرة الطائفة النصرانية حينما أعلنت جماعة إسلامية عزمها على إصدار صحيفة يومية ، فاعتبرت ذلك مكابرة ، فكتبت « أفريك نوفيل » تقول : « إنهم يستعدون لإصدار صحيفة يومية عما قريب » ثم تساءلت : « إلى أين يسير صعود التيار الإسلامي ؟ » ، وتذهب العجرفة بالصحيفة النصرانية إلى حد نقد كبار المسؤولين في أجهزة الدولة والحكومة لتركهم المتعاطفين مع التيار الإسلامي داخل الحكومة نفسها : « وكان رئيس الدولة على اطّلاع على أهداف الدعاة المسلمين ، ولكنه ماذا يفعل حينما يكون بعض أعضاء حكومته متعاطفين مع أعداء السلطة ؟[٣٢] » هذه السلطة قد تكون سلطة الدولة ولكن ليس ببعيد أن يكون المقصود بها سلطة الكنيسة .

وبما أن الكنيسة ، بعد تجارب سنين طوال ، اقتنعت أنها لن تنجح في تنصير المسلمين ، لأن ذلك هدف بعيد المنال ، فإنها تكتفي ببث البلبلة في نفوسهم ، وتنصير تصرفاتهم ، فذلك سائغ لانعدام أي جهة تتصدى لمخططاتهم الصليبية ؛ فلم يكن لدى الشيوخ - الذين بمقدرتهم التصدي لها - وعي كافٍ بخطورة ما تبيته الكنيسة للإسلام وأتباعه ، كما أن تنظيمات المستعربين من الضعف بحيث لا ينتظر أحد منها القيام بمثل

(٣٢) افريك نوفيل ، وتعني بكلمة « أعداء السلطة » المسلمين الملتزمين بدينهم .

هذه المهام الشاقة التي تتطلب توفر حدّ أدنى من الاستقرار والاستقلال النفسي والمادي ، فالمستعربون الذين بحكم ثقافتهم يعون جيدًا خطورة نوايا النصرانية تجاه المسلمين مجردون من كل سلاح يقاومون به تهجمات الكنيسة التي تتعاون مع جهات مشبوهة للتشكيك بالإسلام ، لهذا الهدف وجهت اتهامات باطلة للإسلام تدّعي أنه السبب في التأخر المادي للمسلمين في السنغال ، والمسؤول عن وضع المرأة المتردي في نظر الكنيسة .

وتقف بجانب النصرانية في مهاجمة الإسلام طوائف دينية أخرى في السنغال متهمة المسلمين بالتعصب الديني[٣٣] . . .

اتهـــامات باطلـــة
تبث البلبلة في نفوس مسلمي السنغال

لقد كان من تقدير الله تعالى أن يكثر أعداء دينه في هذا البلد ، يقومون بمناوأته ، وينقبون عن مثالب أتباعه ، ويفتعلون العيوب لزعمائه ، وينبشون تناقضات الفئات المنتمية إليه ، جاعلين ذلك كله منطلقًا للهجوم والقضاء على الإسلام ، وبث البلبلة في النفوس .

لم تكن الكنيسة وحدها في هذا الميدان ، بل عملت هي وهيئات معادية للإسلام للتشكيك فيه ، ونجحت إلى حدٍّ ما ، فقد بتنا نجد أشخاصًا يحملون أسماء إسلامية ، ويتزيون بزي المسلمين ، لكنهم

(٣٣) بخصوص التعصب الديني ، يحسن ذكر قصة مُدَرِّسةٍ نصرانية في مَدْرَسَةٍ تابعة للكنيسة في مدينة « كَوْلَخْ » ملخصها : أن هذه الفتاة أسلمت وأظهرت إسلامها ، وما إن علمت إدارة المدرسة بالنبأ حتى بادرت بطردها ، وذلك سنة ١٩٨٠م .

يعيشون بعقلية النصارى ، ويتصرفون على شاكلة الأوروبيين ، مخربين دينهم الإسلامي بأيديهم بتغرير من الهيئات النصرانية والماسونية والبهائية المتسترة وراء نوادٍ مشبوهة ومجهولة الهوية ، ولا تتورع عن التلفيق والافتراء لكسب الأتباع من أجل الحصول على موطىء قدم على أرض هذا البلد المضياف . وتلقى هذه الحركات التشويشية صدًى كبيرًا لدى بعض كبار الكوادر الذين تستهويهم شعارات الماسونية الزائفة ، وتمويهات البهائية ، اللتين تزعمان أن مبادئهما لا تتنافى مع الإسلام (!!) .

وتجدر الإشارة إلى أن الماسونية تملك بعض المحافل التي تضم عددًا من كبار الشخصيات ، ويقال : إن لها أتباعًا حتى بين متزعمي الطرق الصوفية ، ومن المستعربين ، فهؤلاء يقومون بدور العملاء ، ينظمون المحاضرات للهجوم على الإسلام في مختلف المناسبات .

وفي الساحة ذاتها تتحرك الطائفة البهائية التي ـ وإن لم تفلح حتى الآن بالتغرير بأحد من المسلمين ـ فإن وجودها في السنغال يعتبر خطرًا على الناشئة ، نظرًا للحرية المعطاة لها حيث تستطيع بكل سهولة الاتصال بالجمهور السنغالي عن طريق الصحافة ، وكان من دأبها أن تنشر من حين لآخر في اليومية شبه الرسمية (لو سولي LE SOLEIL) بلاغات منمقة وبيانات مزيفة تشرح من خلالها مبادئها ، وتعرض عبرها وجهة نظرها حول قضايا اجتماعية مختلفة مع شيء كثير من الحذلقة والمغالطة ، الأمر الذي يمكن ، في المستقبل ، أن يُسقط في حبائلها الشباب المسلم .

غير أن خطر البهائية ، في الوقت الراهن لم يستفحل ، لأنها لا تتوفر على مؤسسات ذات أهمية ، وذلك خلاف وضعها في غامبيا المجاورة التي تكوّن مع السنغال اتحادًا « كونفيدراليًا » حيث بنت مستشفيات

ومراكز صحية ومدارس ، وتنشر الكتيبات باللغة العربية مما يلزم التفكير في اتخاذ الاحتياطيات للحيلولة دون تسرب عدواها إلى السنغال ، وبالتالي تطهير غامبيا الشقيقة من هذا الوباء .

يضاف إلى أعداء الإسلام هؤلاء منظمات تعمل متسترة خلف أقنعة متعددة على الساحة السنغالية ، منها : منظمة « كاريتاس KARITAS » وهي هيئة عالمية نصرانية ، لها فروع في كل بلد يوجد فيه نصارى ، مهما قلّ عددهم ؛ هدفها المعلن : إسعاف ضحايا الكوارث الطبيعية في بقاع العالم كلها ؛ عقدت فروعها في السنغال اجتماعًا بمدينة « داكار » في العاشر من مارس ١٩٨٤م خصصته لدراسة وضع منكوبي الجفاف ، وما يمكن أن تقدمه لهم من مساعدات في هذا السبيل !!

تتبع هذه المنظمة سياسة مدروسة تقوم على اختيار عيِّنات خاصة من قرى المسلمين ـ تعيش في ظروف اقتصادية بائسة تجعل أهلها معرضين ، أو لديهم قابلية للتنصير ـ تقدم لهم ما يحتاجونه ، وتوزع عليهم بعض علب السردين ، ومسحوق الحليب المجفف ، وحفنات من الأرز والدقيق . . .

ومن هذه المنظمات أيضًا : نوادي « الروتاري » التي تقوم بدورها كذلك ، وتقدم معونات إلى هؤلاء الفقراء ، وهذه النوادي ـ كما هو معروف ـ ذات علاقة وثيقة بالمحافل الماسونية ، تحقد على الإسلام ، وتغري كبار الكوادر بالمناصب التي تزعم أنها تضمنها لهم في الجهازين : السياسي والاقتصادي في البلاد . . . وتستغلهم بعد ذلك لتحقيق مآربها في توهين عرى الإسلام ، وإضعاف المسلمين .

هذه المنظمات وكثير غيرها ، تختلف أسماؤها ، إلاَّ أنَّ أهدافها واحدة ، فعلى سبيل المثال : نوادي «الليونز» تشبه «الروتاري» في

أسلوب عملها ، من حيث الادعاء بأنها غير دينية ، وما ذلك إلاَّ لإخفاء هويتها الحقيقية التي تعمل لخدمة وتحقيق أهداف أعداء الإسلام .

من هنا كان الجفاف الذي حاق ببلدان إسلامية فرصة اهتبلتها هذه المنظمات النصرانية والماسونية تحت غطاء « الأخوة الإنسانية » و « التضامن الإنساني » لتتسلل إلى عقر دار الإسلام ، نافثة سمومها ، داعية إلى عقائدها الفاسدة الهدَّامة .

إنَّ استقرار الجفاف والجوع في منطقة الساحل ، وهي منطقة يكوِّن فيها المسلمون الأغلبية الساحقة ، أعطى فرصة لهذه المنظمات التنصيرية وأمثالها للظهور والتحرك ؛ حيث تقوم بتقديم المواد الغذائية والملابس والأدوية ، في الوقت الذي تكاد الهيئات الإسلامية أن تختفي فيه عن الساحة نفسها !!

ومن الأفكار المنمقة التي تروجها تلك الطوائف المعادية للإسلام الزعم أن كل تأخر وتخلف فكري ومادي عائد إلى الإسلام ، وأن كل تفتح ثقافي وتقدم حضاري راجع إلى غيره ، وهم يتجاهلون أن من الحيف أن تنسب (التقدمية) إلى دين بعينه ، وتُنفى عن آخر ، في حين أن الأديان السماوية أتت أساسًا لإنقاذ البشرية من الهمجية وبراثن الجهالة ، وورطة العماية ، ولاقتيادها نحو الخير والهداية ونور الحضارة ، ولذلك عندما تُنفى (التقدمية) عن دين ما فقد جرد من أهم خصائصه ، وعلّة وجوده ، وجوهر مقوماته .

ومن المقولات المتداولة لدى أعداء الإسلام بالسنغال ، قولهم : إن النصرانية بمثابة سهم يشير إلى الأمام ؛ بينما يومىء سهم الديانة الإسلامية إلى الوراء لاحتوائه عناصر سالبة في جوهر العقيدة : ويمثلون لذلك : اعتقاد المسلم بـ (المكتوب) ، وعجزه عن تغيير ما يحيط به من

عوالم ، ونفي كل إرادة نابعة منه ، والاستسلام الكلي للقدر . . . مما أقعده عن المجازفة ، وثبط عزمه ، وشلَّ لديه كل مبادرة ، لذلك لم يحاول بذل أي جهد لتغيير وضعه من سيىء إلى حسن ، ومن حسن إلى أحسن ، فالمؤمن يردد أن الرزق بيد الباريء يعطيه النائم الكسول ، ويحرمه العامل النشيط الذكي (!!) فلا داعي والحالة هذه ، للاكتساب والارتزاق ، والكد والنَّصَبِ لضمان حياة مادية أو روحية راقية ، إذ لا طائل من وراء ما يبذل من جهد لتحويل اتجاه العجلة .

لا شك أن تلك المقولات بعيدة كل البعد عن حقيقة العقيدة الإسلامية السليمة ، لأن هذه القدرية العمياء لا تعبر عن وجهة نظر الإسلام الصحيح الذي يدفع المسلم نحو العمل الصالح المفيد ، ويجعل ذلك مقياس التفاضل بين الناس ؛ ورسول الله ﷺ هو الذي أمر المسلم ، حتى ولو قامت عليه القيامة ، وبيده فسيلة أن يزرعها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا ، والله عز وجل يقول :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (القصص : ٧٧) وهو الذي ربط التغيير في المجتمع بتغيير المسلم لما في نفسه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١) .

إذا كان الرد بالنفي ، ترى ماذا في العقيدة الإسلامية يعوق التقدم ، ويحول دون استخدام ملكات العقل والجسم ، ويمنع المسلمين من محاولة تغيير محيطهم لصالحهم ؟ !

ويكفي للرد على هؤلاء أن ندعوهم إلى استقراء ماضي الإسلام ، ليس في فترة ازدهاره في دمشق الأمويين ، وبغداد العباسيين ، وقرطبة

المسلمة بالأندلس ، بل عن طريق مقارنة المجتمع الأفريقي المسلم وما يماثله من مجتمعات أرواحية : « إن السكان المسلمين يمكن أن يصبحوا بسهولة متعصبين ومعادين للبيض ، ولكن مما لاشك فيه أن الإسلام لدى السود خميرة للحضارة ، ويمكن أن يرقى بأخلاقية السكان الأصليين ، ويرفع بشكل ملموس من مستواهم العقلي[٣٤] » .

ثم إن دستور الإسلام : القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، وتطبيقات السلف الصالح رضوان الله عليهم تفند مزاعم الاتكاليين الكسالى ، وادعاءات مناوئي الديانة الإسلامية ، بل كيف يتصور العقل السليم أن يدوِّخ هذا الدين ، لفترة غير وجيزة ، مشرق الأرض ومغربها ، من مشارف الصين إلى تخوم جبال « البرانس » ، ويبني صرح حضارة لم تبلَ معالمها رغم ما تعاقب عليها من أطوار وأحداث وفتن ؟

ويبدو أن بعض الفئات تتذرع بمثل تلك الأفكار الخاطئة لتشكيك المسلمين في دينهم وبث التشويش في نفوسهم ، فضلًا عن أن إلصاق (التأخرية) إلى الإسلام ما هو إلا تبسيط لأعوص معضلة تشغل بال العالم كله ، إذ ـ حسب هذا الادعاء ـ تنحل عقدة التخلف بعصا سحرية بمجرد ما يتنكر مجتمع إسلامي لعقيدته الإسلامية باعتناق بدائلها من نصرانية ويهودية أو حتى أرواحية . . .

لا يفتر هؤلاء المعادون للإسلام عن ذكر ما يزعمون أنه ثغرة في النظام الإسلامي ، ألا وهو وضع المرأة : فهي مهضومة الحقوق ، غير مساوية للرجل ، وهي دون الجنس الآخر في كل شيء . . . لسنا هنا بصدد استعراض ما تتمتع به المرأة في ظل النظام الإسلامي ، وإنما نشير فقط

(٣٤) سيكاري أورده روندوت في كتابه :
L'ESLAM ET LES MUSULMANS DEAUJOURD HUI P.42

إلى وضع المرأة في المجتمع الأرواحي حيث لم يكن لها أي حق ؛ بل كانت عليها واجبات فقط ؛ فهي لا ترث بل كانت موضوعًا للإرث ، فعندما يتوفى عنها زوجها لا يكون لديها خيار في الاقتران بمن تشاء ، إنما هي مرغمة على الزواج بأحد أقارب الزوج المتوفى ، والعلة في ذلك أن المهر يعتبر ثمنًا لها ، أي أنها تصبح به في ملك الزوج ووارثيه .

لا نتعرض لجميع الاتهامات المفتريات ضد الإسلام ، ولكننا نؤكد أنها افتراءات تستحق منا أن تؤخذ بمأخذ الجد ، لأن أعداء الإسلام يتخذونها مطية لتنفير ضعاف القلوب والمغفلين وأنصاف المثقفين من المسلمين من دينهم .

لا يدرك هؤلاء أن هذا الدين يدعو إلى تحرير الإنسان من ربقة العبودية ، عبودية الشهوات والمادة والجاه .

ولعل أفدح خطأ يقع فيه دعاة القضاء على الإسلام في السنغال هو تصورهم أن تصفية هذا الدين يتم بالسهولة نفسها التي يصفي بها انقلاب عسكري آثار حكومة عائمة غير ذات قاعدة شعبية متينة !! فمن المتعذر - إن لم يكن من المستحيل - استئصال العقيدة الإسلامية الراسخة الجذور في النفوس ، لأن ذلك منوط باجتثاث عروق الشعب السنغالي نفسه ؛ وإذا ما قامت ثورة بإبادة مواطنيها ، تفقد تلقائيًا علة قيامها .

ونحن نعتقد أن الإسلام سيكون أول المستفيدين من أية حركة هادفة تعمل من أجل إخراج هذا البلد من التخلف ، وهو عمل يساعد العاملين في الساحة الإسلامية على إصلاح المفاهيم الخاطئة حول المجتمع الذي يقترحه الإسلام للإنسانية .

إن أي حركة سياسية أو اجتماعية لا تقدر الوضع الخاص للإسلام في

السنغال محكوم عليها بالفشل ، كما أن أي إصلاح لا يضع ضمن أولوياته العناية بالدين الإسلامي لن يكتب له النجاح ، وذلك لسبب بسيط وهو أن ٩٥٪ من سكان السنغال مسلمون لهم تاريخ طويل في حظيرة هذا الدين ، وأن الطائفة النصرانية - رغم ما لها من نفوذ لا يتناسب مع وزنها العددي - لا تستطيع أن تتطاول لتؤدي دورًا اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا - بالحدة نفسها في الدول الأفريقية التي فيها تضخم سكاني نصراني - ، في السنغال لتفاهة عدد أتباعها ، فليس السنغال من الأقطار التي يحتكر فيها النصارى الثقافة الأوروبية ، والمهارة الفنية .

ولعل من الدوافع التي ينبغي أن تقوّي تمسك السنغاليين بعروة الإسلام كونه عامل وحدة وطنية ، وباعث شعور بوحدة الانتماء إلى أمة ، إذ لم تكن هناك صلة تربط (الأولوفي) بـ (الماندنكي) أشد متانة من صلات الدين الإسلامي ، فقد وحّد الإسلام العناصر المختلفة واللغة والعادات ، ونظمها وقارب سلوكها ونمط حياتها : تحتفل الجماعات في أيام واحدة وساعات واحدة بأعياد الإسلام ، مما ساعد على التخفيف من عناصر التمايز وإطفاء الشيء الكثير من أوار نار النعرة العنصرية والنخوة العرقية الجوفاء .

ويبدو أن اعتبار الإسلام عنصرًا جوهريًا للوحدة الوطنية تخطى حدود السنغال إلى غيره من الأقطار الإسلامية ، « الدين هو الأساس ، وأحيانًا الأساس الوحيد لعنصر الوحدة في كثير من المجتمعات الوطنية لبلدان أفريقية وعربية آسيوية

الفصل الرابع

بعض خصائص الإسلام في السّنغال

لعلَّ من الأهمية بمكان أن نشير في مستهل هذا الفصل إلى أنَّه لا وجود لإسلامٍ متعدِّد الألوان ، على شكل قوس قزح ، يعكس تعدد ألوان المنتمين إليه ، وأنه مرفوض أصلاً أن يكون إسلام للعرب ، وثانٍ للأفارقة ، وثالث للهنود ، ورابع للملاويين[1] .

فالإسلام المقتبس من مناهله العذبة الصافية ، وأصوله الثابتة الراسخة - كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ - واحد لا يختلف مهما نأت ديار معتنقيه ، وتباينت ألوان بشرتهم : لا يتميز في شيء المسلم السنغالي الذي يستمد عقيدته من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة عن المسلم الفلبيني أو السعودي أو الموريتاني المتشبث بالأصول الصحيحة نفسها ؛ وذلك رغم اختلاف محيطهم الاجتماعي وصورهم وألوان بشرتهم .

فالخصائص التي سيأتي الحديث عنها هنا ليست في جوهر الدين الإسلامي ، وإنما هي إضافات قادمة من جهات أجنبية عن الإسلام .

أسباب تسرّب بقايا الأرواحيّة إلى الإسلام في السنغال

لسنا بصدد التعريف بالإسلام ، فلذلك مظانه ، وما القصد سوى التعرض لبعض المعتقدات والممارسات التي التصقت بالدين الإسلامي

(١) هذه النقطة ذات أهمية قصوى ، لأنَّ الاستعمار الفرنسي كان يبث مثل هذه الأفكار ، ويشجع على إقناع المسلمين بأنَّ إسلامهم بحكم اختلاف البيئة الاجتماعية ، مغاير للإسلام الذي يمارسه العرب ؛ وبلغ الأمر إلى حد أن « فينسان مونتي » ألَّف كتابًا في الستينيات سماه : (الإسلام الأسود ISLAM NOIR) وكان «فينسان» المدير العام للمعهد الأساسي لأفريقيا السوداء بمدينة داكار ، وكان قد ألف كتبًا كثيرة عن الإسلام .

في السنغال ، وقد جاءت حلّها من المجتمع التقليدي ، ويبدو أن كثيرًا ممن ليسوا من أهل الدراية لا يميزون بين العناصر الدخيلة على الإسلام وبين غيرها لشدة التفاعل والتمازج بينها ؛ وقد يعود سبب تسرب تلك العناصر الأجنبية إلى الإسلام إلى عوامل عديدة ائتلفت وتشابكت بعضها مع بعض على مرور الزمن :

من ذلك : طبيعة الدعوة الإسلامية والظروف الموضوعية التي رافقتها ، وطبيعة أرضية المنطلق وظروفها فرضت على الدعاة التكيف معها ، ومعلوم أن هذا الدين انتشر بالطرق السلمية ، حيث لم تكن بحوزة العاملين في هذا الحقل قوة مادية زاجرة أو رادعة تمكن من فرض احترام حدود الإسلام في مجتمع حديث عهد به ، وتحميه من انحراف المنحرفين ، وتصبغ الحياة الاجتماعية بالصبغة الإسلامية ، وذلك تحت رعاية سلطة إسلامية ؛ بينما نعرف تاريخيًّا أن انتشار الإسلام تم في عدد من المناطق عن طريق تجار أفارقة ، وبرابرة ، وعرب قدموا لبلاد الأرواحيين من أجل عرض بضائعهم للبيع ، فليس من شأن هؤلاء أن يفرضوا على من يدعونهم لدينهم قواعد وتصرفات قد يجدون فيها حرجًا لاختلافها مع ما ألفوه من قبل ، خصوصًا وأن التجار المسلمين لا يملكون قوةً سوى إيمانهم .

وأما الصنف الثاني من الدعاة ، فليسوا أحسن حالاً من سابقيهم ، وهذه الفئة تتألف من أشخاص كانوا يفدون على بلاد السنغال للعيش لدى الأمراء الأرواحيين ، فهم شيوخ مجردون من كل سلاح عدا إيمانهم ، فليس من شأن هؤلاء كذلك أن يفرضوا على أولئك الذين يسلمون على أيديهم تطبيق الدين الجديد بحذافيره ، ودون مراعاة لشعور الأمراء ومعطيات الوضع الاجتماعي العام والسياسي للإمارات .

فغياب أية سلطة زمنية ترعى الإسلام وتدخل على النفوس هيبته ، وتحمي حِمَاه حينما يتعرض للتحريف ساهم إلى حدٍّ بعيد في ظهور ـ أو على الأصح في بقاء ـ ممارسات وعقليات متأثرة بعادات وتقاليد المجتمع الأرواحي إلى درجة أن اندمج بعضها في الإسلام حتى أصبح وكأنه جزء منه ؛ ولقد حاول زعماء مسلمون من السنغال تصحيح الوضع عن طريق نشر التعليم الإسلامي الصحيح ، وذلك بدءًا بتأسيس دول وممالك إسلامية تنهض بعبء تبصير الرعايا بالإسلام السليم من الشوائب ، سواء بين المجتمعات المسلمة التي حادت عن النهج الصحيح بسبب الجهل والانعزال عن العالم الإسلامي ، أو بين الجماعات التي لم تعتنق الإسلام . وربما تدخل حرب الحاج عمر الفوتي ضد « ماسينا » المسلمة في هذا الإطار .

قد يندهش دارس الإسلام في السنغال وفي غيره من أقطار غربي أفريقيا لوجود كثير من العناصر الغريبة عنه والتي تسربت إليه من بقايا معتقدات عهد الأرواحية !

ظاهرة التشيّخ[2] في السنغال

ليست الطائفة التي كانت تزور من حين لآخر قصور أمراء السنغال سوى الجماعة التي ستعرف فيما بعد باسم « الشيوخ » حيث تزامنت ظاهرتها وظهور الإسلام نفسه في هذا القطر ، إذ يعود إليها الفضل في

(٢) تحسن العودة بخصوص المعتقدات التقليدية الأفريقية إلى كل ما كتبناه تحت عنوان « المعتقدات الدينية » ففيه توضيح ما كان عليه المجتمع السنغالي ، تلك المعتقدات التي تسربت إلى إسلام مسلمي هذا البلد ، ولم يَصْفُ منها تمامًا حتى الآن رغم مرور مئات السنين على دخولهم في الديانة الإسلامية .

انتشار الديانة الإسلامية في غربي أفريقيا كله ، كما سبقت الإشارة .

ولدينا شهادة عدد من الأوروبيين الذين زاروا السنغال في القرن الخامس عشر الميلادي ، ولاحظوا حضور شيوخ برابرة وعرب في قصور ملوك (كاجور) و (جولوف) فكان هؤلاء الشيوخ يصحبون الأمراء « لأنهم ـ الشيوخ ـ يلقنونهم الفقه » [«دامو» سنة ١٤٥٥م] ويقول «كولهو ـ COELHO» : « كان بحضرة ملك سالوم شيخ ، وأن هذا الملك « كان يتجول مع عدد كبير من الشيوخ البيض القادمين من تلمسان »[3] .

وبفعل التطور الهائل الذي حدث بالسنغال عبر مساره التاريخي ، فإنَّ دور الشيخ عرف تطورًا وتنوعًا كبيرًا نجم عنه بروز طوائف في إطار العمل في الحقل الإسلامي لظهور الطرق الصوفية : شيوخ من صانعي الطلاسم ، وشيوخ من رجال الأعمال ، وجماعة الضغط السياسي . . .

طوائف الشيوخ

بادىء ذي بدء ، يجب أن نلاحظ حضور الشيوخ في مختلف المجتمعات الإسلامية ، سواء في القارة الأفريقية ، أو في آسيا ، أو في المشرق العربي ، لا عبرة للاسم الذي يطلق عليهم هنا أو هناك : يسمونهم بـ(ألْفا) تارة وبـ (سريج) وحينًا بـ (مُورو) وآخر بالمرابط ، ومن هذه الكلمة الأخيرة جاءت اللفظة الفرنسية (MARABOUT) بيد أن تباين هذه الأسماء في هذا القطر أو ذاك من العالم الإسلامي ليس إلاَّ لفظيًّا ، لأنَّ الوظيفة الاجتماعية والدينية المنوطة بهم تكاد تكون واحدة في تلك

(٣) فرنسسكو دي لموس كولهو سنة ١٦٦٩م ، انظر (الإسلام الأسود) مونتي ص : ١٢٥ .

المجتمعات كلّها ؛ وإذا كان هناك اختلاف فلا يتعدى أن يكون ناجمًا عن تباين معطيات الظروف التاريخية والبيئية ، ومدى الوعي ، ومبلغ المستوى الحضاري لهذا المجتمع الإسلامي أو ذاك ؛ فصورة الشيخ التي سيأتي رسمها قد لا تعكس في تفاصيلها كلّها صورة شيخ يعيش تحت سماء أخرىٰ ، ولكنها بالتأكيد تصوِّر الملامح العامة لشيوخ الدين في العالم الإسلامي .

يتلخّص دور الشيخ في المجتمع السنغالي في نشر العقيدة الإسلامية والأفكار الصوفية ، والقيام بتربية الصغار وتعليم الكبار ، وتنسيق أعمال اجتماعية ودينية من إمامة ورئاسة حفلات : عقد قران ، وعقيقة ، وجنازة ، وأحيانًا يتقمص دور الكاهن في المجتمع التقليدي من حيث طمأنة أفراد مجتمعه من هيجان قوى الطبيعة ، وإبطال مفعول السحر الأسود ، بل الشيخ عامل توازن هام في المجتمع السنغالي : يتوسط بين الفرقاء ، ويسوّي المنازعات العائلية ، ويفضّ الخصومات ، ويصلح ذات البين ؛ على أن نجاحه وفشله منوط بقوة شخصيته ، ومدى اتساع صيته ، وأصوله الاجتماعية ، ووضعه الاقتصادي .

الشـــيوخ من الطـــراز الأول

تتركب طائفة الشيوخ من فئات عديدة لأنَّ هذه الكلمة تطلق على كل من هبّ ودبّ ، ففيها الصالح كما فيها الكثير الطالح .

ويمتلىء تاريخ السنغال بالشيوخ ذوي القيمة العالية ، علمًا وعملاً وورعًا ، وتتميز هذه الجماعة بكونها تجمع بين الزهد ومواظبة الذكر ، والتمسك بتعاليم الإسلام قولاً وعملاً ، وتمتهن التدريس فضلاً عن أنها

- بعد ظهور الطرق الصوفية - أصبحت عميلاً نشطًا لها ، وقد يتخلل ذلك كلّه تعاطي علم الخواتم . . .

وهي فئة مثلى من بين طوائف الشيوخ في السنغالِ لما أدَّت من دور تاريخي ، وقد سبق أن ذكرنا بعضًا من نشاطاتها .

وفي الحقيقة ما كانت تركن إلى الاستكانة والكسل والتواكل والاعتماد على جاه الأجداد ، بل كانت نشطة منتجة ناشدة نعماء الله تعالى بالأسباب المشروعة ، وبالوسائل المعروفة العادية الطبيعية ، علاوة على كون أغلب أفرادها من العلماء ، وكانت لذلك محطّ تقدير لدى العامة ، وها هي لوحة من الشعر الشعبي تعكس رؤى العامة للشيخ المثالي :

أنت سيسي[٤] ، درست كل العلوم ،
تصلّي ليلًا وتسهر كل الليالي ،
ترص صفوف جموع المصلّين ،
في كل يوم تصلّي ، وكل جمعة تؤم . . .
أنت مبجل ، تصوم وتخرج الزكوات
عند مسألتك ، لا تجيب إلَّا بما يقول المليك[٥]

وصوّر الكاتب السنغالي الشيخ «حامدو» ، وكان أحد شيوخ هذه الفئة ، وهو في كتّابه وبين تلامذته : « كان الرجل مُسنًا ، نحيلًا ، شديد الذبول ، بالغ الهزال لتقشفه ، لا يضحك أبدًا ، فاللحظة النادرة التي يمكن أن يُرى فيها وهو منشرح هي تلك التي يغرق فيها في الأذكار ، أو حينما يستمع إلى تلاوة كتاب الله ، فيرتاح ، ويبدو وكأنه يرتفع عن الأرض ، وكأنه مرفوع بقوة خفية ؛ وكثيرًا ما يكون مندفعًا بغضب جنوني

---

(٤) سيسي اسم عائلة مشهورة بين الشيوخ .

(٥) أورد «مونتي» هذه القصة في كتابه المشار إليه سابقًا ، ص١٣٦ - ١٣٧ .

نتيجة كسل أو خطأ أحد التلاميذ ، وقد يذهب به الغضب إلى حد العنف والخشونة بشكل غريب ، لكن هذا العنف ـ في الواقع ـ من أجل المصلحة التي يريدها للتلميذ المخطىء »[٦] ، ومن المؤسف أن تصبح هذه الفئة اليوم مغمورة بعيدة عن الأضواء .

فئــة أخرىٰ من الشـــيوخ

وهي فئة تتعاطى الطلاسم ، أو ما يسمى بعلم الأسرار ، وترجع ممارسة هذا اللون من العلم إلى عهود قديمة ، ويقال : إنَّ « منسا موسى كانكو » حين اقتنائه للكتب بمصر اشترى عددًا من المؤلفات التي تعالج علم السيمياء ؛ وتنطلق جذور تعاطي السيمياء من المغرب ، البلد الذي يقتبس منه السنغال شؤون إسلامه ، حيث ذكرت مصادر أنه في بداية القرن الثاني عشر الميلادي صنع المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية ، حرزًا في جلد المزواد وأعطاه لمضيف له جزائري وطلب منه الاحتفاظ به دائمًا لأنه جالب للخير[٧] .

على أن هذا النوع من العلم ظهر قبل ابن تومرت ، ففي القرن الرابع الهجري اعتنت جهات إسلامية في الشرق الإسلامي بعلم التنجيم وبأسرار الحكمة ؛

يتطور هذا النوع من المعرفة تطورًا خطيرًا في غربي أفريقيا إلى درجة استحالة العثور على متعلم بالعربية دون أن يشتغل به بشكل أو بآخر .

---

(٦) (المغامرة الغامضة) شيخ حامدو كان ، وهي قصة تدور حول الصراع بين المجتمع الإسلامي التقليدي والمجتمع الذي حاول الاستعمار اختلاقه بالسنغال ؛ وشيخ « حامدو كان » يشغل منصب وزير التخطيط والتعاون في حكومة جمهورية السنغال .

(٧) أورده «مونتي» في كتابه المشار إليه آنفًا : ص١٤١ .

ومن مساوئه ـ لا أدري ما إذا كانت له محاسن ـ أن الاهتمام به يفضي إلى تدني دراسة وفهم الإسلام ، لأنه يصرف المعتنين به عن طلب العلم الذي يطلق عليه اسم علم الظاهر ، وكثيرًا ما يصدف المهتمون بالأسرار عن تلاوة كتاب الله تعالىٰ لانكبابهم على قراءة أدعية وأذكار تشغلهم عن دراسة شؤون دينهم[٨] . . .

فئــة متدنِّيــة

إذا كان تعاطي هذا النوع من النشاط غير مشروع فإنَّ هناك فئة متدنِّية تمتهنه وتتعيش عليه ، وتركن إلى الاستكانة والكسل وتتظاهر بالتقوى والزهد ، وتقوم بتدبير الحيل للاستيلاء على أموال النَّاس بالباطل ؛ وينعدم عند هذه الفئة أدنى استعداد عقلي أو روحي ، فحياتها في ذلك المستوى المتدني أبعدتها عن النخوة والطموح ، فضلاً عن كون سلعتها تافهة وهي عبارة عن خواتم موضوعة تنسخ نسخًا وتتم كتابتها بعد مواصفات خاصة : ورق أبيض ، لوح مصنوع من خشب كذا ، قلم كذا من عروق شجر معين . . . ويشبه بعض وصفاتها وصفات الأرواحيين ؛ بل قد تستعين بهم (!؟) والتعاويذ ـ عند المؤمنين بها ـ تضمن الحماية ، سواء ضد الأشخاص والحيوانات أو ضد الأشياء » .

كان إبرا ديغين IBRA DEGUENE بصفته مسلمًا حقًّا ، يقتبس من القرآن آيات ، ثم ينسخها على صفحات قرطاس ، ويخيطه بنفسه ، ثم يعطيه

---

(٨) وأكبر دليل على ذلك أن بعض الأشخاص يواظبون على قراءة « دلائل الخيرات » للجزولي ، إلى حد الحفظ ، في الوقت الذي يستنكفون عن تلاوة القرآن الكريم ودراسة علومه !!

الأطفال ؛ وأحيانًا ، يغطس القرطاس في قصعة ماء ، فيشربه ، ويغتسل به ، وأمام بعض الحالات الخاصة ، تغلب غريزة المحافظة على كل اعتبار ، فيستعين بالتقاليد الوثنية المنتسبة إلى عالم «تيدو» (!!) وتتكون أحجبة هؤلاء من «القداس» الذي يوجهونه إلى عفاريت الخلاء والجان ، ولهم أساليب خاصة بهم ، وهي لا تخطىء : رقية كذا ، وذبيحة كذا ، . . . وكان « إبرا IBRA » لدى عجز الطلاسم ، يلتمس خفية مساعدتهم ، وكانت تمائمهم عبارة عن قرن كبش مخيط في ثوب ذي لون قرمزي ، مع عقد من حبَّات الودع . . يعلق كل ذلك على مدخل منزل العائلة لأمنها ، ومن أعمالهم : تعليق جرس صغير على عنق الكبش الضخم الذي يملكه « إبرا IBRA » وذلك لحمايته .

وكانت التمائم التي تحملها « ثيان THIAN » حول خاصرتها مخيطة في جلد أسد ، وهو عمل وثني . وكان الوثنيون يملكون أنواعًا من جلود الحيوان : من جلد النمر إلى جلد الفهد ، ومن جلد الضبع إلى جلد الثعلب ، ومن جلد الوعل إلى جلد الفيل[9] .

على أنه في بداية اتصال ضعاف القلوب بأصحاب الأحجبة ، يُطلب منهم استطلاع خفايا المعضلات ، وعندما يتم ذلك يدخل الطرفان في مساومة حول الأجر (المقابل المادي) ، ولكشف ثنايا المستقبل والغيب ، يستعين متعاطو هذا العمل بالرمل ، وهو عبارة عن خطوط مركَّبة من النقاط تحلل وتقرأ ثم تفسّر بِعَدِّ النقط .

وجدير بالإشارة أن كتبًا عربية مطبوعة في مصر وتونس والمغرب تستخدم لهذا الغرض ، أشهرها : قرعة الأنبياء ، وهو كتاب يحتوي على

(٩) « القلعة الملعونة » . نفيسة نيانغ جاللو . وهي قصة تصوّر معتقدات وممارسات المجتمع السنغالي التقليدي .

أبواب كثيرة يحمل كل باب منها اسم نبي من أنبياء الله ، ويتم استعماله على النحو التالي : تقرأ الفاتحة ثلاث مرَّات ، ثم تغمض العينان بعد فتح الكتاب ، وتحط الوسطى على إحدى الخانات ، وتكون هي السهم ، ومن ثمة تقرأ الباب ؛ ويوجد في الأبواب أهم ما يشغل بال العامة : إن كنت تسأل عن زواج فشأنه كيت وكيت ، وإن كنت تستفسر عن مشروع سفر فأمره كذا وكذا . . وهكذا دواليك . . .

وفوق هذه الممارسات تعتبر هذه الفئة ذات صلات وثيقة بعالم الأرواح والأشباح ؛ تتعارك مع الجان والعفاريت وتُطارِدُ مصاصي الدماء وتنزع من مخالبهم الفرائس ، وتتدخل لإخصاب الأرض وجلب الأرزاق وإكثار النسل والوقاية من الحساد وحماية المجرمين والحيلولة دون دخولهم في غياهب السجون حتى لو اقترفوا أكبر الجرائم ، ويدّعي بائعو الطلاسم أن بعضها يحصن حامله من أن يؤثر فيه السلاح .

لا تهمنا هنا الأداة المستعملة لدى أصحاب السيمياء ، ولا النتائج التي قد يتوصلون إليها ، كما أنه لا يعنينا ما قد يبدو عجائبَ . . . فتلك قضايا تخرج عن الإطار الذي رسمناه لهذا الكتاب ، بل تدخل في الدراسات «السوسيولوجية والأنثروبولوجية » وغيرها من العلوم الإنسانية ، كما أننا لا نثير مسألة تحريم أو جواز احتراف كتابة الطلاسم ، وما يقترن به من ممارسات غريبة ، فتلك أمور يمكن معرفة أحكامها من مظانها من كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ ، وكتب علماء الإسلام[10] ؛ **فغايتنا** : إبراز الجوانب السلبية للسيمياء بالسنغال .

(١٠) بخصوص موقف الشريعة من هذا الأمر ، أحيل القارىء على سلسلة بحوث قيمة قامت بها الجريدة العالمية (المسلمون) في مارس [آذار] ١٩٨٥م حول عالم السحر .

تتمثل الجوانب السلبية هذه في أن جلّ متعاطي السيمياء عاطلون عن العمل الإنتاجي ، حيث لا يساهمون إلاَّ في تقهقر البلاد اجتماعيًا واقتصاديًا وفكريًا ، وتتفاقم خطورة هذه الظاهرة يومًا بعد يوم إذا علمنا أن جميع الأوساط الاجتماعية السنغالية-تتعاهد علنًا أو في الخفاء بؤر أصحاب الطلاسم ، ابتداءً من رجل الشارع العادي إلى كبار الشخصيات ، من مثقفين وسياسيين وإداريين . . . لذلك تعج كبريات المدن السنغالية بالعشرات من مختلف الأعمار من متعاطي علم الأسرار يتقوقعون في البيوت بانتظار الزبائن .

وفي الواقع ، فإن الأمر يتعلق بتجارة رابحة : تباع الطلاسم بأثمان باهظة تصل أحيانًا إلى مبالغ خيالية . وقد أدَّى الاعتقاد والاستعانة بها في كل صغير وكبير إلى كوارث وفضائح اجتماعية واقتصادية لا تحصى ، ولقد ندَّد شيوخ سنغاليون بهذه الحرفة ، وكتب - بهذا الصدد - الشيخ « مالك سي » في كتابه : « كفاية الراغبين فيما يهدي إلى حضرة رب العالمين وإقماع المحدثين في الشريعة ما ليس له أصل في الدين » وكفَّرهم : « وكان ذكر اسم الله تبارك وتعالى لغير وجه الله محدودًا من الشرك ، فما تقول في بيع الاسم بالمال ليستعمله المشتري في حظوظ النفس ؛ فالبائع يدخل العام على غرض فاسد والله المتولي الأمور ؛ يقول لك : إن ذكرت هذا الاسم تنال كذا وكذا من الجاه والمال والقبول ، قل له : يأيها الأخ ما المانع من وجودك ما ذكرت حتى تبيعه وأنت السابق على ذكره ، فإن أردت أن يفتح الله لك الباب وييسر لك كل عسير فلازم التقوى في جميع أمورك ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجعَل لَّهُ مَخرجًا . وَيرزقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق : ٢ - ٣) » . ويضيف الشيخ « مالك سي » : « إنَّ شرك الأغراض عند أهل الشريعة فعل أعمال البر لغير وجه الله ، ونيل غرض من الأغراض . . . ومما يجانس شرك الأغراض تعليق شيء مثل التمائم وغيرها دون إسناد التأثير إلى الله تبارك وتعالى » ، ويستشهد بأقوال العلماء كالشيخ محيي الدين الذي ذكر أن « الولوع والاشتغال بعلوم الأسرار من الحروف والأسماء وغيرها ، وهي علوم « الهبة » ، مذموم دينًا ودنيا . مذموم طلبها ، فلا يطلبها إلاَّ جاهل » تدل هذه الفقرة دلالة واضحة أن تعاطي الطلاسم وما يدخل في هذا العالم لا ينظر إليه العلماء المحققون في السنغال بعين الرضى بل يعتبرونه شركًا وانحرافًا عن جادة الطريق . . .

[٢] الطـــرق الصوفيـــــة[١١]

إذا كانت ظاهرة التشيخ قديمة قدم الإسلام نفسه في السنغال ، فإنَّ الطرق الصوفية تعد جديدة نسبيًا ، ويبدو أنها ظهرت في أطراف الصحراء الكبرى أثناء مرور الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني بموريتانيا ، وهو في طريقه إلى نيجيريا ، في القرن الخامس عشر الميلادي ، حيث أخذ عنه الطريقة القادرية بعض أعيان قبيلة «كنت» ومن ثم بدأت تنتشر في غربي أفريقيا .

والطرق الصوفية عبارة عن مجموعة قواعد للرياضة الروحية ، تحتوي على أذكار وأوراد وسلوك خاص ، وضعها كبار زعمائها ، الذين تألق

(١١) لا يسوغ تجاهل الطرق الصوفية في السنغال في أية دراسة جادة ، بل إن جهلها بالنسبة للدعاة إلى السنَّة قد يؤدي إلى نتائج عكسية . إذ لا بد من معرفة منطلق العقائد الفاسدة والممارسات الخاطئة حتى يمكن محاربتها بفعالية ، ومحوها بسهولة ، والتمكن من التغلب عليها حين مراجعتها ، الأمر الذي حملنا على عقد فصل لدراسة الاتجاهات الصوفية ومراكز قواها وطبيعتها في السنغال .

نجمهم وذاع صيتهم لأتباعهم المتعلقين بأهدابهم ، وممن يستهويهم التصوف دون أن يكون لديهم استعداد كامل للغوص في خِضَمِّهِ .

وقد ازدادت أهمية الطرق الصوفية في السنغال من بداية القرن التاسع عشر لتبلغ أوجها مع بداية هذا القرن ، وتضافرت عوامل لصعودها ولشهرة كبار قادتها .

كانت العائلات الإسلامية الكبيرة محل احترام ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، حتى في ظل النظام البائد «تيدو» وكانت بيوتهم مأوى المستضعفين حين تتصاعد قسوة نظام الأرواحيين . وعلى إثر تلاشي ذلك العهد وجد الناس البديل في زعماء الطرق الصوفية حيث التف حولهم صنفان من المواطنين :

١ - أولئك الشامتون بسقوط نظام الطغيان ، ويشكل هؤلاء الأغلبية الساحقة ، يقول «مارتي» : إن حقيقة مزايا الإسلام ونزاهة الشيوخ حجبت السمعة التي كان يتمتع بها زعماء سياسيون في السنغال القديم . خصوصًا وأن هؤلاء أصبحوا - بعد انهزامهم وخضوعهم للاستعمار - موضع إهانة واحتقار من الشعب ، بينما لم يدخل الشيوخ في مساومات مهينة مع المستعمر ، ولذلك ظلوا رمزًا للمقاومة الوطنية » يعني أنه كلما ضعفت الأرواحية ، ازداد نفوذ الإسلام ، وبالتالي قوة الشيوخ .

٢ - طائفة «تيدو» نفسها وجدت في الالتفاف حول الشيوخ متنفسًا لمرارة انهزامها واندحارها أمام الاستعمار وردّ فعل الاحتلال الأجنبي .

يضاف إلى ذلك تفكك المجتمع التقليدي بفعل ظهور التعامل في ميدان التجارة بالقيم - العملة - وسهولة المواصلات وتنقلات الفلاحين الدائبة من قرية إلى قرية بغرض زراعة الفول السوداني ؛ إذ غيَّر ذلك كلّه

طبيعة العلاقات بين الأفراد . وقد استفاد الشيوخ والطرق الصوفية في مناطق خاصة في السنغال من هذا الوضع الجديد لكونهم القوة الوحيدة الكفيلة باستقطاب العناصر المختلفة .

كان الواحدُ - بعد انفلاته من سلطة العائلة ومن نفوذ مقدم القرية ، وتحرره من الارتباطات العشائرية واختفاء استبداد «تيدو» - مضطرًا إلى البحث عن بديل فيجده لدى التنظيمات الطرقية .

ولعلَّ أهم عامل ساعد على تألق نجم الطرق الصوفية وزعمائها يكمن في تطور فلاحة الفول السوداني التي أدت إلى شيوع اقتصاد مبني على تبادل تجاري في نطاق عالمي ، وكانت البداية بزراعة الفول السوداني بمناطق وسط وغربي السنغال ، وهي المناطق نفسها التي عرفت قبل غيرها تطورًا في الإدارة ونموًا في العُمران ، بينما ظلت المناطق الأخرى من البلاد منكمشة على نفسها .

وهذه الحركة التجارية والعمرانية والإدارية رافقت بروز رؤىً جديدة في الحياة ، وولدت رغبة جامحة لدى العامة في وجود زعامة دينية تجسم أحلامهم ، وتحل محل الزعامات البالية ، وزاد من حظ الشيوخ في السيطرة على العامة أنهم لم يطمعوا في منصب كان «تيدو» يعتلونه ، وبالمقابل كرَّسوا - بالأصح بعض منهم - جهودهم على الأعمال الإنتاجية ، وعلى وجه التحديد إنتاج الفول السوداني حتى أصبحوا ذوي مراكز اقتصادية لا يستهان بها ؛ بجانب زعامتهم الروحية ، من أجل ذلك توجّه آلاف الناس إليهم لقوتهم المالية والاجتماعية ، فحمل ذلك الإدارة الاستعمارية على خطب ودّهم والاستعانة بهم .

وعندما استشعرت الزعامة الطرقية ثقلها الاقتصادي ونفوذها السياسي لم تتوان من الاستفادة منها لحماية مصالحها وازداد مع الأيام نفوذها وتدخلها في الشؤون العامة ـ إدارية وسياسية ـ خصوصًا وأن وساطتهم تلتمسها فئات مختلفة من الشعب .

ويلاحظ أن جلّ كبار زعماء الطرق الصوفية موجودون في المناطق التي بدأ وتطور فيها إنتاج الفول السوداني ، مما يؤيد رأينا أن نمو وتطور زراعة هذه الغلة ساهم إلى حد بعيد في شهرة هذا الشيخ أو ذاك ، فـ «فوتا» التي ينتسب إليها عدد من زعماء الطرق لم تعرف شيخًا واحدًا له شهرة الشيوخ الذين ظهروا في مناطق إنتاج الفول السوداني ، ونتيجة لذلك فقد لا نحيد عن الصواب إذا ذهبنا إلى القول بأنَّ هناك علاقة سببية بين نفوذ وشهرة شيخ وبين الموقع الجغرافي والوسط الاجتماعي والأصل القبلي الذي نبع منه .

على أنَّ عدوى ظاهرة الزعامة الطرقية وتسمياتها المختلفة تسربت إلى المناطق الأخرى بل المجموعات التي لم تعرف إلاَّ حديثًا النزعات الانتمائية إلى طرق أصبحت لها ألقاب طرقية .

الأسر الطرقيَّة الكبرى

أولاً : القادريّة :

تبدو الطريقة القادرية وكأنها أمّ الطرق في السنغال ، وتنسب إلى أبي صالح عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧ ـ ١١٦٦) ، انتشرت في أقطار عديدة من العالم الإسلامي حيث أعطت القالب للطرق التي نشأت بعدها « ليس من المغالاة في شيء ـ يقول « ألفونص غوبي » ـ القول إنَّ الطرق

الإسلامية قد استوحت بشكل أو بآخر من التنظيم الذي هيَّأه الجيلاني ومن المبادىء التي وضعها » (12) . جاءت القادرية ، شأن باقي الطرق الصوفية ، من شمالي أفريقيا إلى غربيها ، ويعتبر الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي أول من نشرها في القرن الخامس عشر الميلادي بموريتانيا ، ومن ثم دخلت السنغال ، لذلك يقع أهم مراكزها في تلك البلاد : الكنتيون ، وأهل « شيخ سيدي » في بوتلميت ، وأهل الشيخ محمد الفاضل ، ولكل من هذه المراكز الثلاثة فروع أو تفرعات بالسنغال ؛ منها :

* مركز (أنجاسان N' DIASSANE) ويقع على بعد حوالي (٧٠) كيلومترًا من داكار ، يجتمع فيه أتباع الكنتية حيث يوجد ضريح أحد زعمائهم ، الشيخ «بوكنت» المتوفى سنة ١٩١٤م . ينتمي جل أتباع الكنتية إلى جماعة « بامبارا » التي هي من جمهورية مالي ، وذلك لامتداد نفوذهم في ذلك القطر قبل انتشار التيجانية ، وخصوصًا في (ماسينا وسيغو) التابعين لهم روحيًا قبل حركة الحاج عمر الفوتي . ولعلَّ كون غالبية أتباع زاوية (أنجاسان) من أجناس غير سنغالية قلَّل كثيرًا من نفوذ القادرية الكنتية في السنغال قياسًا إلى نفوذ الزعامات الطرقية الأخرى .

على أن (أنجاسان) تستقبل ، بمناسبة موسم المولد النبوي الخاص بها آلاف الزائرين يفدون إليها من مناطق نائية ، وخصوصًا من جمهورية مالي .

* منذ عهد قريب برزت مراكز قادرية جديدة بفضل التقليد دون أن تكون لها جذور تاريخية ولا أصول ثابتة : كمركز (مكا كوليبنتان MAKA

---

(12) "LAPENSEE RELIGIEUSE DE AMADOU BAMBA" PAR FERNAND DUMONT.

COLIBANTANG) الذي تتزعمه عائلة (جابي جاساما DIABY GASSAMA) وهي جماعة (جاخنكي DIAKANKE)[13] التي هاجرت في الستينيات من غينيا (كوناكري) إثر نزاع نشب بينها وبين الرئيس سيكوتوري ؛ وتتميز احتفالاتهم بالصخب ، حيث تمتزج التهليلات والأهازيج الدينية بدقات الطبول وإيقاعات (كوري) وبدع لا تحصىٰ ؛ شأنهم شأن باقي الطرق الصوفية .

* وفي جنوبي السنغال مركز دار السلام الذي أسسه أحد أحفاد الشيخ محمد الفاضل هو الشيخ محفوظ بن طالب خيار المتوفىٰ سنة ١٩١٧م .

وتوجد أنشط الزوايا القادرية في موريتانيا المجاورة في :

* بلدة بوتلميت ، وليس مؤسسها سوى أحد تلامذة الشيخ سيدي المختار الكنتي ، وهو الشيخ سيدي الكبير (١٧٨٠ ـ ١٨٦٩م) وقد أدّى حفيده الشيخ سيدي بابا المتوفىٰ سنة ١٩٢٤م دورًا خطيرًا لتوسيع دائرة القادرية في السنغال ، وغامبيا والأقطار الأخرى المجاورة ؛ تحصل هذه الزاوية على أهم أتباعها من جماعة (ماندنكي) .

وبجوار بوتلميت مركز نمجاط حيث قبر الشيخ سعد أبيه بن محمد الفاضل المتوفىٰ سنة ١٩١٧م ، ويجوب كل سنة مئات الزائرين من أتباع هذه الزاوية الصحراء تحت أشعة شمس محرقة للاحتفال بعيد الفطر تحت الخيام على جنبات كثبان الرمال المبعثرة هنا وهناك حول ضريح شيخهم الذي تنسب إليه الكرامات .

وتبنى القادرية ، شأن التيجانية ، على أسس أخلاقية راقية ، تدعو إلى التمسك بقواعد الإسلام ، وتحث أتباعها على الرأفة والتسامح

(١٣) بخصوص جماعة «جاخنكي» ودورها في نشر الإسلام بغربي أفريقيا ، خصوصًا في غامبيا ، وكازا منسا ، راجع مذكرتنا المشار إليها سابقًا .

والتواضع ، فهي من هذه الزاوية لا غبار عليها ، ولعلّ غلوّ بعض أتباعها في تقديس زعمائها يدخل الريبة على النفس ؛ خصوصًا وأنهم يعطون أحيانًا الأولوية لشؤون الطريقة . وتتراوح أذكار القادرية بين البساطة والتعقيد ، طبقًا لاختلاف رتبة المريد ، ويبدو أنها أذكار خالية من عوامل التشويق : فلا إنشاد ولا تطريب ولا حضرة تضم مجموعة من الناس ، وافتعال جذب واختلاق حالة الوجد . . .

وتعرف الطريقة القادرية اليوم تقهقرًا ملحوظًا وتناقصًا في عدد الأتباع منذ ما وصلت التيجانية إلى غربي أفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ومنذ أن تطورت المريدية في القرن العشرين الحالي وامتازت بنوع من الركود والفتور بينما أثارت التيجانية حماسًا دينيًا منقطع النظير ، واتهمت القادرية بالتواطؤ والتساهل مع (تيدو) ثم ظهرت المريدية لتستقطب البقية الباقية من أتباع القادرية .

ثانيـاً : التيجانيــــة :

تنسب التيجانية إلى مؤسسها الشيخ أحمد التيجاني الجزائري (١٧٩٧ ـ ١٨١٥م) الذي درس بفاس ، ويمم نحو الديار المقدسة لأداء فريضة الحج سنة ١٧١٨م ، وفي طريق عودته عرج على مصر ، وهناك انسلك في الخلوتية ، وكان قبل ذلك قادريًا ثم طيبيًا ، كما كان محمد الغالي خليفة سيدي أحمد التيجاني في المشرق خلوتيًا قبل أن يصبح تيجانيًا ، ويقال : إن الحاج عمر الفوتي كان هو الآخر سابقًا خلوتيًا .

أسس سيدي أحمد التيجاني طريقته بإيعاز من الشيخ محمد الكوردي ، فلم تمر إلاّ فترة وجيزة على تأسيسها حتى طغت ، لا على الخلوتية التي تعد أمًّا لها فقط ، بل على غيرها من الطرق المنتشرة

بشمالي وغربي أفريقيا قاطبة ، وذلك بفضل حيوية ونشاط دعاتها ، والهالة التي تؤطر حضرتها الجماعية .

وصول التيجانية إلى غربي أفريقيا :

انضم الشيخ محمد الحافظ الشنقيطي المتوفى سنة ١٨٣٠م ، إلى التيجانية على يد مؤسسها مباشرة الذي عيَّنه «مقدمًا» واستخلفه على موريتانيا وما جاورها ، فقام الشنقيطي بنشر الطريقة بين قبائل الشنقيط وبفضله وصل مداها إلى السنغال .

ولم تشعّ التيجانية كل الإشعاع بغربي أفريقيا إلاَّ حينما تقلّد زعامتها الحاج عمر الفوتي (١٧٩٥ ـ ١٨٦٤م) الذي تلقى الطريقة بالحجاز على يد محمد الغالي ، وبعد وفاة الفوتي اتسعت التيجانية اتساعًا لم يسبق له نظير ، ونجحت في استمالة قلوب أتباع القادرية التي اندحرت أمامها .

تستقطب التيجانية اليوم تقريبًا جميع أفراد جماعة فلاتة في السنغال ، كما تحظى بإقبال كبير لدى جماعة (أولوف) ، وتبعًا لذلك يسوغ تقدير أتباعها في هذا القطر بحوالي ٧٠٪ من المسلمين . تتم بعض أذكار وأوراد التيجانية جماعيًّا ، حيث يتحلق الأتباع حول ثوب أبيض يزعمون أن رسول الله ﷺ يجلس عليه بصحبة أحمد التيجاني أثناء الذكر (!!) وتتردد الأذكار بصوت عالٍ مع إيقاع منسق ومنظم ، ولا شك أن لهذه الحضرات جاذبية من الطراز الأول ، خصوصًا للعناصر الشابة ، باعتبارها وسيلة لإشباع الرغبات الروحية التي لا سبيل لإشباعها لدى العامة إلاَّ بتظاهرات مادية مثيرة .

ونجم عن أهمية التيجانية وتعداد أتباعها ظهور زعامات لها وألقاب وتنظيمات جديدة تهدف إلى مراقبة وتأطير الأتباع ؛ ومن أهم مراكزها :

* مركز تيواوون ـ TIVAOUANE :

تقع مدينة (تيواوون ـ TIVAOUANE) بغربي السنغال على بعد (٧٠) كيلو مترًا من داكار ، وعلى بضعة كيلو مترات من مركز القادرية (أنجاسان) .

أسس زاوية (تيواوون) الحاج « مالك سي » المتوفى سنة ١٩٢٢م ويمتاز هذا الشيخ بأنه اهتم كثيرًا بتكوين أتباعه فكريًّا ، لذلك كانت زاويته مركز إشعاع ثقافي عام .

ويقال : إنه كان أول من نظم وثبت الاحتفال بالمولد النبوي (غامو ـ GAMO) وبعد وفاته تعاقب أبناؤه على زعامة الزاوية وتسييرها ، وكانت قد نشبت مشاحنة بين أعضاء عائلة «سي» منذ الخمسينيات لم تسوَّ على ما يبدو إلاَّ حديثًا .

زاوية آل الحاج عمر الفوتي :

تقع هذه الزاوية بداكار حيث يشرف عليها أحد أحفاد الحاج عمر الفوتي ، وتولى رئاستها الحاج سعيد نور تال المتوفى سنة ١٩٧٩م ، ويلاحظ أنه رغم التفاف جماعة (تكلور) حول هذه الزاوية لا يبدو لها نفوذ واسع مثل زاوية تيواوون في ميدان السياسة على الأقل .

زاوية كولخ :

تقع كَوْلَخ على بعد مائة وثمانين كيلو مترًا من مدينة داكار ، فيها زاوية الشيخ إبراهيم نياس المتوفى سنة ١٩٧٥م ، وكان له أتباع في موريتانيا وغانا ونيجيريا ، وقد أقام علاقات ودّ مع عدد من العلماء في العالم الإسلامي .

زوايا أخرى من درجة ثانوية :

إلى جانب الزوايا الأساسية تتبعثر مراكز تيجانية في طول البلاد وعرضها : زاوية (كينيبا ـ KENEBA) الواقعة على بعد (٨٠) كيلو مترًا من داكار ، ولها خليفتها العام ، وزاوية الحاج محمد سعيد باه في جنوبي السنغال بقرية (مدينة غوناس ـ GOUNASS) ولهذه الزاوية أتباع كثيرون يتبعون نظامًا خاصًا لهم في الإنتاج الاقتصادي .

اللاّيينيّة :

يعتبر بعض الكتاب (اللايينية) تفرعًا من تفرعات التيجانية لكون مؤسسها تلميذًا لأحد شيوخ التيجانية ؛ ظهرت هذه الحركة سنة ١٨٨٠م في قرية (يوف ـ YOFF) القريبة من داكار على يد (إمام لاي تياو ـ THIAW) وكان أميًّا يمتهن صيد السمك ؛ وتتمركز (اللايينية) على جماعة (ليبو ـ LEBOU) ولا يبدو لها نشاط ملحوظ خارج هذه الجماعة .

المريديّة :

أسس المريدية الشيخ (أحمد بامبا ـ ١٨٥١ ـ ١٩٢٧م) وكان قد تعرض لمضايقات الإدارة الاستعمارية بسبب موقفه السلبي منها ، فنفته بعيدًا عن بلاده مرتين ثم ظلَّ تحت الإقامة الجبرية إلى أن وافته المنية سنة ١٩٢٧م .

ويعتقد بعض الباحثين أن المريدية امتداد للقادرية معتمدين على العلاقات الوثيقة التي ربطت بين الشيخ أحمد بامبا والشيخ سيدي بابا ؛ والأقرب للصواب أنه لما صفت نفس « بامبا » راودته ريادة طريق خاص به ، وفوق ذلك يفهم من بعض أشعاره أن طريقته الجديدة لا تميز بين القادرية والتيجانية المريدية فكلتاهما موصلة إلى الله تعالىٰ ومقربة إليه .

ولقد أدّت المريدية دورًا كبيرًا في تطور إنتاج الفول السوداني حيث كان زعماؤها من كبار منتجيه .

ومدينة طوبي ـ حوالي (١٥٠) كيلو مترًا من داكار ـ هي العاصمة الروحية للمريدية ، وتستقبل زهاء مليون نسمة كل سنة بمناسبة الاحتفال بليلة ١٧ صفر التي تصادف ذكرىٰ نفي الشيخ « بامبا » إلى غابون ، وتدوم الاحتفالات ثلاثة أيَّام ، وتدور حول المسجد الجامع حيث ضريح مؤسس المريدية ؛ ومن الجدير بالذكر أن أتباع المريدية يراقبون قسمًا هامًّا من حركة تجارة التفصيل ، كما أنَّ طائفة (باي فال BAY FALL) تمارس أساليب تعتبر شاذة بالقياس إلى نهج شيخهم منها الاستغناء عن الصلاة والظهور بمظاهر غريبة ، وعبادتهم لشيوخهم !!

وقد استهوت المريدية أخيرًا عددًا من الشباب الذي وجد فيها نوعًا من الوطنية باعتبار زعيمها ابنًا للسنغال ، ولتساهلها في ممارسة شعائر الدين .

تنظيم الطرق الصوفيَّة

تنظم الزعامات الطرقية أتباعها على شكل هرمي ، يتربع (الخليفة العام) على قمّته ويحيط به (المقدمون)[14] و (الشيوخ)[15] ويقوم هؤلاء بمهام التنسيق بين الزعامة المركزية والتنظيمات والهيئات التابعة لها ، ويشرف المقدم أو الشيخ على الأعضاء في القرى والمدن ، والأحياء والجاليات السنغالية في الخارج المنتسبة إلى الطريقة ؛ ويتم تقسيم

(١٤) المقدم : اصطلاح تستعمله التيجانية ، وهو مرتبة لا ينالها إلَّا عدد قليل من الأتباع .

(١٥) الشيخ : اصطلاح منتشر لدى جماعة القادرية حيث يقوم زعيمها «بتشييخ» أحد الأتباع .

المدن إلى دوائر تضم الواحدة منها عددًا من الأتباع يتعاونون فيما بينهم ويدرسون حياة الطريقة ، وهي في الوقت ذاته القناة التي عن طريقها يتم توصيل تعليمات زعيم الجماعة ، وتقوم بتنظيم الزيارات إلى قبور مشايخها ، أو زواياهم ، وتنسق الدوائر نشاطاتها بمناسبة مواسم وأعياد الطريقة التي تنضوي تحتها .

وتتمتع المريدية من بين الطرق بحسن التنظيم مثلما تمتاز بالانضباط : خليفة عام واحد ينصاع جميع أعضاء الطريقة لأوامره (ديغال ـ DIGUEL) ودون الخليفة العام زعماء من درجات دنيا : أبناء المؤسس وأحفاده ، وكبار أتباعه خارج أسرته .

الدولـــة والطـــرق الصوفيَّـــة

حسب دستور السنغال فإن الدولة علمانية لا تتلون بأي صبغة دينية ، لكن ذلك لم يمنع من مشاركتها في حياة الطوائف الدينية الإسلامية والنصرانية ، ولا يتصور أن تقف متفرجة أمام قوى روحية واقتصادية واجتماعية متنامية دون أن تحاول احتواءها أو الاستفادة منها ، خوفًا من إفلات زمام الأمور من يدها والاتجاه بها إلى ما لا يرضيها ولا تحمد عقباه .

تقوم الدولة بدعم الزعامات الدينية ماديًا ومعنويًا ، وترسل وفدًا رسميًا عنها ليمثلها في الحفلات التي تقيمها الطوائف الطرقية .

وعلى الصعيد المادي تقوم السلطات الرسمية بتقديم مختلف التسهيلات إبان مواسم الطرق : توفير المياه الصالحة للشرب ، نصب الخيام ، تعبئة العشرات من رجال الشرطة والدرك لحفظ النظام ،

والرعاية الطبية ، وتقديم مبالغ نقدية لدعم المهرجانات الطرقية ، منح تصريحات جماعية للعمال والموظفين الراغبين بالمشاركة في تلك المواسم ، تغطية إعلامية واسعة : إذاعة وتلفزة وصحف . . . ومقابل هذا تجني الدولة فوائد جمّة : إذ تهتبل المواسم الطرقية فرصة لتلتمس من زعمائها استخدام نفوذهم لدى أتباعهم كي يوفوا بما عليهم من ديون ، مثلما تتوصل بهم لتطبيق قرارات إدارية يصعب تنفيذها دون تدخلهم ؛ ويتكثف التماس رضاء الزعامات الطرقية يومًا بعد يوم لا سيما إبان الحملات الانتخابية ـ نيابية أو رئاسية ـ إذ يكفي أحدهم أن يذكر بخير زعيم هيئة سياسية حتى يتهافت أتباعه للتصويت لذلك الزعيم وتلك الهيئة السياسية . . . وقد نتج عن هذا الوضع أن أصبح زعماء كبريات الطرق سياسيين يشاركون بشكل ملحوظ في اتخاذ القرارات الهامة في الدولة .

غياب شخصيات ذات أبعاد إسلامية عالمية

بعد اختفاء الرواد الأوائل من الذين جاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى تشتكي الزعامة الطرقية في السنغال اليوم من أزمة زعيم يتمتع بشخصية تكون على مستوى الأحداث والمستجدات في الساحة الإسلامية : وذلك إما لأن بعضهم انشغل بجمع حطام الدنيا فحاد عن حياة الشظف إلى حياة البذخ والترف ، وإما لأنهم لم يعد لديهم ذلك الاندفاع الذي كان عند الرعيل الأول ، لتدني مستواهم الثقافي والوازع الديني ؛ فأغلب الزعامات الآن أصبحت تجترّ أمجادًا غابرة لكنهم لم يجودوا بإضافات جديدة على الصرح الذي ابتناه الأسلاف .

هناك مجالات رحبة على صعيد الدعوة إلى الإسلام تنتظرهم ، وهم

وحدهم المؤهلون للنجاح فيها لما يتوفرون عليه من مالٍ وجاه ، ونفوذ مادي ومعنوي ؛ فقد سبق أن أشرنا في مستهل هذا البحث أن في السنغال جماعة لا تبرح تحتفظ بالمعتقدات التقليدية ، وأن الكنيسة النصرانية تبذل المستحيل لاحتوائها ، فلو تضافرت جهود الزعامة الطرقية للتصدي للنصرانية وقطع الطريق عليها لأسدت بذلك خدمة جلّى لدينها ، وهيهات . . فهي منشغلة عن قضايا دينها !!

ومن المؤسف أن أي وحدة في العمل لا تجمع هذه الطوائف ، فكل جماعة مستقلة بذاتها لا تربطها بالجماعات الأخرى سوى صلات واهية لا تتجاوز حدود المجاملة ، مما يستبعد أدنى اتفاق بينها في أي موضوع مهما كانت حاجة الدعوة الإسلامية إليه .

ومما يبعث على الأمل أن عددًا قليلاً من الشيوخ نزلوا من أبراجهم العاجية ، وبدؤوا يبنون المدارس الحديثة ، ويعتنون بها ، وهم في هذا المجال سيحققون نجاحًا باهرًا ـ إن شاء الله ـ

الفصل الخامس

حركة الاستعراب

ظلَّ الإسلام فيئًا تستظل به اللغة العربية حيثما حلّ وأينما ارتحل في ربوع السنغال ، البلد المسلم غير المستعرب ، فقد واكبت حركة الاستعراب تاريخ انتشار الدين الإسلامي ، فكلما تمكّن الإسلام ذاعت لغة يعرب ، واكتسحت مساحات جديدة ، فلم يَحُلْ بُعد ديارها الأصلية دون تعاظم شأنها في السنغال البعيد ، حيث لم تكن رمال الصحراء عائقة لازدهارها واطّراد التبادل الثقافي بين شطآنها عبر القرون والأجيال ، وكانت هذه الحركة تلقى التأييد والدعم من مسلمي ضفاف المحيط الرملي : ملوك كبار من إمبراطوريات القرون الوسطى تبادلوا السفارات مع جانبي الصحراء ، مثلما استقدم ملوك من مملكة مالي فنيين وعلماء للاستفادة من التقنية والفن الإسلاميين .

وتأثر الشعب السنغالي بمختلف عشائره أيّما تأثر باللغة العربية ، سواء في حياته الروحية ، أو في مظاهر حركاته الاجتماعية ونشاطاته الاقتصادية وأنظمته السياسية ؛ وكان للاحتكاك بين السنغاليين والتجار والسياح العرب والبربر دَوْرٌ وفضلٌ كبيرٌ ؛ ومن أجل ذلك تسرّبت كلمات وعبارات كثيرة من العربية إلى اللغات السنغالية .

وليس ببعيد أن يكون انتشار اللغة العربية في منطقة غربي أفريقيا متزامنًا مع ظهور طلائع أصحاب عبد الله بن ياسن الذين أقاموا في إحدى جزر السنغال في القرن الحادي عشر الميلادي حيث انطلقوا لإخضاع قبائل بربرية بالصحراء الكبرىٰ ، والسيطرة على مملكة غانا الواقعة مباشرة على الواجهة الجنوبية من المحيط الرملي ، وذلك بقيادة أبي بكر بن عمر ، وابن عمه : يوسف بن تاشفين .

منذ ذلك العهد البعيد ما فتىء التعليم العربي الإسلامي مطَّردًا ، ولم

يتقهقر قيد أنملة يومًا من الأيام حتى أصبحت اللغة العربية لغة الثقافة والإدارة والتجارة والمراسلات ، ووسيلة للاتصالات الدولية في السنغال ، ودامت هيمنتها واحتواؤها للحياة العامة إلى أن تمت السيطرة للقوى المعادية للإسلام ابتداءً من النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

على أن تطور التعليم الإسلامي العربي لم يسلك طريقًا ذا اتجاه واحد ، وإنما كان أخذًا وعطاءً ، فكان المسلمون يرسلون أولادهم إلى موريتانيا للدراسة ، ولما كثر المتخرجون في مجالس تلك البلاد أسسوا بدورهم المدارس العربية التي أصبحت تستقبل طلبة العلم ، ومن مراكز العلم في السنغال مدن : (فوتا) وقرية (بير) ، فضلاً عن جامعة «تمبكتو» في مالي التي كان « أحمدو بابا » أحد علمائها ، وممن اضطلعوا بمهام التدريس بجامع الكتبية بمدينة مراكش بالمغرب ، وكان يحضر دروسه جمع غفير من طلبة العلم المغاربة .

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية في السنغال كونها تقوم بعدة وظائف في آنٍ واحد : فهي صالحة لمجالات الحياة المعاصرة من إدارة وتربية وتعليم وسياسة واقتصاد وفنون شأن اللغات الأوروبية الحديثة ، فاللغة العربية ـ علاوة على وظائفها الدنيوية ـ لغة دين سماوي ، يتمسك بها أكثر من مليار مسلم ، يقدسونها لنزول القرآن الكريم بها ؛ يتعلم كل مسلم على الأقل بعض العبارات العربية ، كالتحية ، والأدعية ، وصيغة الشهادة ، والكلمات التي تصاحب شعائر الصلاة وغيرها ، ويحفظ بعض الآيات من الذكر الحكيم ، هذا عدا ضرورة معرفة اللغة العربية لأي دارس جادّ للإسلام .

ونجم عن هذا المركز المرموق للعربية أن الشعوب التي اعتنقت الإسلام لم تكن تنظر إليها كلغة أجنبية ، ولا عجب حينئذٍ أن نرى هذه

الشعوب ـ عبر الأجيال ـ تساهم في نشرها وتعمل على إغنائها ، وتتخذها ـ خلال فترات من تاريخها ـ أداة للتعبير عن ثقافتها الوطنية ؛ وشغلت العربية هذه الوظيفة في السنغال قبل أن تتغلب عليها اللغة الفرنسية إثر سقوط البلاد تحت نير الاستعمار ، وظلت إلى ذلك الحين اللغة الوحيدة التي كان يستطيع الإنسان السنغالي بواسطتها أن يتصل مع الخارج .

وكان المستعربون قد احتلوا في مختلف العصور مناصب رؤساء الدواوين في بلاطات ملوك السنغال الأرواحيين منهم أو المسلمين ؛ وكان تحرير المراسلات والأوامر والقرارات باللغة العربية أو باللغات الأهلية المكتوبة بالحروف العربية .

لقد استغرق وجود اللغة العربية حقبة طويلة من الزمن ، امتدت من العصور الوسطى إلى العصر الحديث لدرجة أن أصبحت الثقافة الإسلامية العربية جزءًا لا يتجزّأ من التكوين العقلي للإنسان السنغالي وثقافته ، وسواء تعلّق الأمر قبل اتصاله بالغرب أو خلال فترة الاستعمار أو بعدها . وانطلاقًا من هذه الحقيقة التاريخية رأت الجهات السنغالية المسؤولة ضرورة دراسة ثقافة وتاريخ البلاد بالاستعانة بالمخطوطات العربية التي دوّنها العرب والأفريقيون بالعربية أو باللغات المحلية بواسطة الحرف العربي .

لا تزال ملامح اللغة العربية جليّة في عدد من مجالات الحياة العامة : فمنذ عهد قريب ، كانت الإرشادات تكتب بمختلف أنواعها بالعربية ، الصحيّة والتعليمات العامة في الأماكن العمومية ، وكثيرًا ما كانت تخطّ تلك التوجيهات بالحرف العربي مع استخدام اللغة المحلية ، وبلغ من ذيوع الحرف العربي هذا إلى حدّ أن جهات تناصب الإسلام العداء كانت تستخدمه لجاذبيته كوسيلة للاتصال بالجماهير ، وذلك بهدف التشويش

والخداع ، لأنَّ العامة تعتبر إسلاميًا كلَّ ما يكتب بالحروف العربية ؛ واستغلت الجماعة القاديانية هذا الوضع الممتاز لهذه الحروف ووقعها في نفوس الأفارقة المسلمين ، فنشرت كتبها بها ، وقد حذت في ذلك حذو البعثات التنصيرية التي ترجمت الأناجيل إلى عدَّة لغات أفريقية مع استعمال الحرف العربي ، هذا وليس من المبالغة في شيء القول : إنَّ الحرف العربي لم ينهزم أمام الحرف اللاتيني بل قاومه بادىء الأمر ، ثم عايشه ، وظل يؤدي وظيفته كاملة ملبيًا الحاجات الثقافية ، والتطلعات الدينية والدنيوية للمسلمين .

ومن ميزة الحرف العربي أنه يتفوق على اللاتيني ؛ لكونه لم يفرض بقوة السلاح ، شأن هذا الأخير الذي كانت تحميه الأسلحة الفتّاكة ، وتشجعه المغريات المادية ، أما الأول فكان في غنًى عن أي حماية لأنه منذ البداية لم يفرض بأي شكل من الأشكال ، ولأنه من مركبات الثقافة السنغالية الأصيلة ؛ وكان حظ اللغة العربية في السنغال وافرًا ، حيث وجدت فيها متطوعينَ جندوا أنفسهم للدفاع عنها ، وتوسيع نطاقها ، وصيانتها من الابتذال والضياع ، فازدهرت آدابها وفنونها ، ولم يكتف المستعربون السنغاليون بالتلقي والأخذ ، بل شاركوا في العطاء ، واقتحموا ميدان التدوين والتصنيف والتأليف نثرًا وشعرًا .

ففي دنيا النثر ، طرقوا مختلف مجالاته ، خصوصًا في الفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، والصرف ؛ وفي صعيد القريض يشغل الرجز مساحة واسعة ، فضلًا عن أن مواضيع إنتاجهم الشعري تتمحور حول قضايا محدودة نسبيًا ، حيث تستوعب المدائح النبوية جلّ القصائد ، يضاف إليها المنظومات المدرسية . والإنتاج الشعري هذا تابع للشعر الموريتاني قلبًا وقالبًا ؛ يبتدىء بعض الشعراء السنغاليين في مستهل قصائدهم

بالتشبيب والنسيب ؛ وسيلةً للوصول إلى محور القصيدة : « يشيم البروق فيتهيج لها ، ويدغدغه بلول ريح الصبا ، وتثيره تغاريد الهزار ، ويبكي على طلول دعد ، وتزعجه بلابل الليل القادمة منها »[1]، وهذا الكتاب لا يتسع لهذا الأدب الثر .

وهذه ثلاثة أبيات من قصيدة طويلة للشيخ عبد الله إنياس ، وهو من كبار شعراء السنغال الناطقين بالعربية :

ما شاق قلبي صوت الشادن الغردِ ... ولا ابتسام الثنايا الغُرِّ عن بردِ

ولا تثنّى ملاحٍ بالحمى برزت ... تختال في حللٍ من عيشها الرغدِ

ولا وصالٌ لدعدٍ بعد ما مطلت ... وحبّذا الوصل بعد المطل من دعدِ

المناعة الذاتيّة للّغة العربيّة :

نظرًا لهذا المركز الهام للغة العربية ، فإنَّ جميع أنواع التهم وجهت إليها ، وتعرضت لمختلف الضغوط ، وكان المستعرب مبعدًا عن الوظيفة العمومية ، لأنَّ هذه محصورة في أُولئك الذين يتقنون لغة المستعمر ، وبلغ من مضايقة العربية والاستخفاف بها أن طبع على عقول النَّاس الاعتقاد بأنَّ التعليم الفرنسي هو الطريق الوحيد إلى السلطة والثقافة الحديثة ، والتفنن في العيش ، والتوسع في المعرفة والعلم وأسرار الحياة ، والمستوى الاقتصادي الرفيع ، ونجم عن هذه الأفكار الخاطئة أن أصبح النَّاس في السنغال منقسمين إلى فئتين : أذكياء وأغبياء ؛ أناس ينتمون إلى الصفوة ، وآخرين إلى العامة ، يتعلم الأذكياء الفرنسية ،

(١) لمزيد من الاطلاع ، انظر أطروحة الأستاذ عامر صمب حول الأدب السنغالي المكتوب باللغة العربية ، فقد أتى بنصوص كثيرة من نثر وشعر للأدباء المستعربين ، وكذا سيرة حياتهم .

وينهجون نمط الحياة الأوروبي ، ولا يتعلم العربية إلاَّ الأغبياء !

ولولا أنَّ اللغة العربية تتمتع بمناعة ذاتية ساعدتها على مقاومة التحديات والبقاء صامدة وشامخة أمام العوامل العاتية والمعادية لانقرضت وتلاشت وصارت في خبر كان .

وفي الحقيقة ، كان وراء صمودها مظلة الإسلام التي ما برحت تحميها من كل غارة غادرة ، ودمار محقق ، بل تجاوز دور الدين الإسلامي من مجرد حماية لها إلى مهمة الريادة في هذا الميدان ، إذ كلما عثر على مرتع خصب هداها إليه ، ثم لا يفتأ يكلؤها ويرعاها ويتعهدها حتى تترعرع وتَثْبُتَ قدماها وتستكمل قواها ومقوماتها ، وتصبح مؤهلة للتصدي لهجمات أعدائها .

وبخصوص السنغال ، جاءت اللغة العربية من موريتانيا حيث كان يرسل المسلمون أبناءهم لحفظ القرآن الكريم والتبحر في لغة الضاد .

ومرّت حركة الاستعراب بثلاث مراحل أساسية :

* مرحلة ما قبل الاستعمار الفرنسي .
* مرحلة فترة الاستعمار .
* مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي .

ويدخل ضمن فترة ما قبل الاستعمار تلك التي تستغرق بداية ظهور الإسلام في المنطقة ، حوالي القرن الحادي عشر الميلادي إلى منتصف القرن التاسع عشر ، فهذه الفترة شهدت الهيمنة التامة للعربية في الثقافة السنغالية ، ومما ساعدها أنها كانت اللغة السائدة في ذلك العهد في دنيا التجارة والديبلوماسية في مناطق عديدة من العالم .

وفي العهد الاستعماري سجلت العربية نوعًا من التراجع أمام اللغة الفرنسية لما نالته هذه الأخيرة من تشجيع ، ومن جراء استمرار الإدارة

الاستعمارية في سياسة التذويب والاحتواء ، إلى أن نجحت قبل رحيلها في إبعاد العربية عن التعليم الرسمي ، والتقليل من أهمية حركة الاستعراب ، وعلى إثر الحرب العالمية الثانية بدأ الاستعمار يرخي من شدة خناقه للحركة ليتداعى نهائيًّا مع بزوغ شمس الاستقلال .

ويحسن بنا لفت النظر هنا إلى أن الشيخ الحاج مالك سي ـ نقلاً عن مصدر موثوق به ـ فكَّر يومًا في ابتعاث جماعة من تلامذته لتكميل دراستهم الإسلامية العربية لدى الناطقين بالعربية ، ولكن المشروع لم ير النور ؛ بيد أن الفكرة بحد ذاتها تعدّ حدثًا تاريخيًّا هامًّا ؛ ويؤيد ما نعتقده أن حركة الاستعراب امتداد لحركة الشيوخ وتطور طبيعي لها ، وحسب التعابير المتحذلقة المستحدثة : الشيوخ يمينيّون والمستعربون يساريّون داخل هيئة واحدة ، فهم جميعًا من طينة واحدة ، وأكثر من ذلك فإنَّ معظم المستعربين ينتمون إلى الأسر المشيخية ، وإن كان لا ينتسب إلى أسر الزعامات الطرقية الكبيرة مباشرة إلاَّ عددٌ قليل منهم ؛ ومن هنا يكمن ـ على ما يبدو ـ سر بعض التنافر وسوء التفاهم بين الجماعتين كما سنرى .

وفي نهاية الأربعينيات إلى منتصف الستينيات كان ينهض الأفراد بتكاليف السفر بأنفسهم ، يتوجهون جماعات ووحدانًا إلى المغرب والمشرق العربيين للدراسة على حسابهم الخاص ، وقلما يستفيدون من دعم أي بلد ، حتى إن بلدية مدينة داكار قدّمت بعض المنح لدراسة العربية في الخارج ـ الجزائر ـ لكنها سرعان ما انقطعت إثر تدخل نائب سنغالي نصراني في البرلمان الفرنسي ، وكان ذلك قبل استقلال الجزائر .

ويعد الحاج « محمود با » من الطلائع الأولى التي نجحت في اختراق

الرداء الحديدي الاستعماري ، فحج بيت الله الحرام ، ثم انتسب إلى مدرسة الفلاح بمكة المكرمة ، ولدى عودته ابتنى مدارس عربية في عدد من مدن السنغال وموريتانيا ومالي ، وحينما اجتمع لديه عدد كبير من الطلبة أرسل بعضهم إلى القاهرة بهدف مواصلة الدراسة هناك ؛ وما إن علمت الإدارة الاستعمارية بذلك حتى وجّهت أمرًا بإعادة الطلاب فورًا ، ولم تكتف بالتهديد بل حرشت أولياء التلاميذ على الحاج محمود ، وزعمت أن أفلاذ أكبادهم معرضون للبيع في أسواق النخاسة في الشرق الإسلامي ، مما اضطر الحاج محمود إلى إعادة المبتعثين وسحبهم من الأزهر الشريف .

ثم جاءت بعد الحاج محمود أفواج تمكنت من الإفلات من قبضة إدارة الاحتلال التي أظهرت نوعًا من التراخي ، وخففت من حدة حنقها على الحركة الاستعرابية ، وذلك بعدما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وبقصد تحويل أنظار الراغبين في الاستزادة من العلم في الأقطار العربية المستقلة وقطع الطريق أمام التيارات الإسلامية الفائرة ، مثل : الجامعة الإسلامية ، أقدمت الإدارة الأجنبية على إنشاء معهد إسلامي ببلدة (بوتلميت) بموريتانيا ليحول دون توجه الطلاب إلى الجامعات المتطورة والمتواجدة في الدول العربية المستقلة ، لكن كانت النتيجة خلاف ما توقعته ، حيث أصبح هذا المعهد مرحلة يتخرج فيه الطلبة ليواصلوا سيرهم نحو العالم العربي الإسلامي المتحرر في ذلك العهد[٢] .

---

(٢) تم إنشاء معهد «بوتلميت» سنة ١٩٥٤م وكان تحت إشراف آل الشيخ سيدي ، وكان على رأس هذه الأسرة يومئذٍ الشيخ عبدالله ولد الشيخ سيدي ، وكان لكاتب هذه السطور الشرف في تعلم مبادىء العربية فيه قبل أن ينتسب إلى المدارس العليا في الدول العربية الأخرى .

ولما استقل السنغال سنة ١٩٦٠م لم تكتف حكومته بالسماح للمستعربين بالخروج إلى حيث يدرسون ، بل ساهمت في جهود التعليم العربي الإسلامي ، وذلك بإدخال مادة اللغة العربية في المدارس الابتدائية - وإن ظلّت مادة هامشية لكونها اختيارية ، وتأتي حصتها بعد الدوام العادي - ثم جاءت أحداث سفارة السنغال بالرباط سنة ١٩٦٣م فاحتل خمسة وتسعون طالبًا سنغاليًا السفارة ، واشتبكوا مع قوات الأمن المغربية اشتباكًا عنيفًا ، وكان الطلبة يطالبون بالمنح الدراسية ، ونجحت حركتهم فاضطرت الحكومة السنغالية إلى تقديم منح دراسية لبعضهم .

على أنَّ حصول البلاد على استقلالها ، وحدوث بعض التطور لصالح اللغة العربية لا يعني أن محنة التعليم العربي الإسلامي قد انتهت ، بل ظل المسلمون يشتكون من ضيق نطاق التعليم الإسلامي ، وقد بلغ الأمر إلى حدِّ التبرم والتنديد العلني : (وبعد أن اتحدت البواعث ، واتفقت الآراء ، فما بقي علينا إلاّ أن نقوم جميعًا حالاً بالواجب الملقى على عواتقنا ، وأوّل هذا الواجب هو أن نطلب نحن جميعًا من حكومتنا إنشاء مدارس كافية لتعليم أبناء الأديان علومهم الصحيحة ، وعلى أستاذنا الذي هو رئيسنا . . . أن يعرف كيف ينظم التعليم لكل طائفة مع اختلاف وجوهها وعدد أتباعها . . . وفوق هذا كلّه ، من واجبه الأكيد أن يسهر على تربية الشعب السنغالي حسب الديمقراطية . . . وأعني الديمقراطية الصحيحة الصادقة منها التي تكون واسعة ، يتسع صدرها لجميع العقائد والملل) ويستمر «انجك» في تأنيبه بهدوء واتزان إلى أن تثور ثائرته فيخاطب «سنغور» رئيس الدولة يومذاك ، بلهجة ملؤها اليأس والأسى والحسرة والكآبة : « لا نطلب أيها الأستاذ الكريم ، أكثر من تحقيق ما جاء في الجملة الأخيرة في هذه الفقرة في مقالتك ، لأنه لو جرى العمل

بهذه الجملة لنلنا مطالبنا التي هي إنشاء مدارس عربية دينية لأبنائنا من طرف الحكومة دون عناء أو إلحاح في الطلب »[٣] .

كلام الأستاذ «انجك» في غنى عن التعليق بخصوص محنة التعليم الإسلامي العربي بالسنغال ، ولا أدلّ على ذلك من وضع اللغة العربية في قائمة اللغات الميّتة - الإغريقية واللاتينية - وكأنها لغة لا ينطق بها أحد ، فيما اعترفت بها هيئة الأمم المتحدة كإحدى اللغات المتداولة في مختلف تنظيماتها بما فيها اليونسكو فضلاً عن أن أكثر من ثماني عشرة دولة تتخذها لغة رسمية ، ولكي تضع الحكومة السنغالية حدًّا لأي أمل في تطوير العربية صدر بيان رسمي عن المجلس الوزاري الذي انعقد في (١٧) يونيو [حزيران] ١٩٦٣م ، برئاسة الرئيس السابق «سنغور» تَمَّ خلاله تحديد مجال التعليم الإسلامي العربي بالسنغال كما يأتي :

١ - يجب أن يكون التعليم - أي : الإسلامي العربي - فرنسيًّا/ عربيًّا ، ولا ينبغي أن ينقطع عن التعليم العام .

٢ - ولا يجب أن يكون إلزاميًّا ، كما أنه ليس إلزاميًّا في تركيا ، وإيران ، وإندونيسيا ، بل يكون اختياريًّا حسب رغبة وحرية اختيار الأسر .

٣ - ولا يجب أن تترك العربية للمغامرة ، وبعبارة أخرى : لا بد من عقلنتها .

وأنكى من ذلك كلّه أن لغات كالإسبانية وحتى البرتغالية تحظى باهتمام

(٣) يرد هنا الأستاذ عيسى إنجك على مقال «سنغور» حول التآخي بين الإسلام والنصرانية ، ويقال من جهة أخرى إنَّ الهيئات النصرانية تحصل سنويًا من الدولة السنغالية على ما لا يقل عن (٤٠٠) مليون فرنك أفريقي ، بينما لا تحصل الهيئات الإسلامية على شيء يذكر .

لا تناله العربية مما دفع الأستاذ (بير فوجيرولاس FOUGEUROLAS) إلى القول بأنَّ : « ما يتعلق بالمواد المقررة ، فتدرس الإسبانية مع شيء من الإسراف مع تفاهة فائدتها لأفريقيا ، وتدرس العربية قليلاً نسبيًّا وحتى الإنجليزية نفسها مع أن لهما نفعًا كبيرًا »[٤] .

ومما يفند مزاعم أعداء التعليم الإسلامي العربي نتائج مسح اجتماعي كانت الحكومة السنغالية قامت به سنة ١٩٦٠م إذ تبين أن حوالي ٢٥٪ من سكان الريف يتقنون القراءة والكتابة بالحروف العربية ، في حين أن ٣٪ فقط من السكان يحسنون القراءة والكتابة بالحروف اللاتينية . وهذه النسبة المتميزة للعربية يمكن أن تساعد على محاربة الأمية ، ولكن الحملة ضد العربية وتعليمها تتخذ أحيانًا أبعادًا مأساوية تستهدف الإسلام نفسه ، بدرجة أن بعض مناوئيها اعتبروها لغة استعمارية إمبريالية ؛ وأثير نقاش حاد في جريدة (الشمس) شبه الرسمية تحت عنوان : « يجب تجريد الإسلام من العربية » دعا أصحاب هذه الفكرة إلى إحياء الشعائر الدينية باللغة الفرنسية أو باللغات المحلية ، لأنها لغات مفهومة ، حيث تعدّ النصرانية أنموذجًا في هذا المجال ، فكتب أحدهم : « انظروا بعض الوقت إلى النصرانية التي يعتنقها ألمانيون وفرنسيون وبريطانيون . . . فكل شعب من هذه الشعوب يستعمل لغته المحلية لممارسة دينه » ، ويمضي الكاتب في تضليله « . . . أجد أن العرب قد استعمروا ثقافيًّا بواسطة الإسلام ؛ ويتحتم علينا أن نكافح حتى يختفي هذا الاستعمار » ، وأغرب شيء في هذه الدعوات وأمثالها أنها تدعونا إلى نبذ العربية باعتبارها لغة أجنبية ، لكن في الوقت ذاته لا يلتمسون بديلها في اللغات

(٤) من كتاب « بيير فوجيرولاس » المشار إليه سابقًا .

المحلية ، وإنما يحثون على الالتفاف حول اللغة الفرنسية ؛ يا لها من مغالطة !!

يضاف إلى ما سبق كلّه أن تطور التعليم الإسلامي العربي منوط إلى حدٍّ بعيد بما يمكن أن يقدمه للمثقف بالعربية في بلد غير ناطق بهذه اللغة من فوائد ليست بالضرورة روحية صرفة ، إذ من المؤكد أنه إذا استمر الوضع على النمط الذي هو عليه حاليًّا فسوف يقل في المدى البعيد الاهتمام بهذه اللغة ، ولعلّ تجويع حاملي الشهادات من المعاهد العربية سياسة ناجعة في إماتة التعليم الإسلامي في السنغال .

نرجو ألاَّ يعتقد القرّاء أننا ندافع عن هذه اللغة بسبب استلاب ثقافي ، شأن الناطقين بالفرنسية ، فنحن بحكم ماضينا وحاضرنا ، نرى أن من الشطط التنكر للعربية ، والواجب يقتضينا أن نقوم بتعرية سذاجة أولٰئك الذين يحاربون لغة القرآن ليبنوا على أنقاضها الفرنسية ؛ ويزعمون أن البلاد ما تخلفت إلاَّ لانتشار الإسلام بين أهلها ، وأن هذه الحالة مستمرة ما داموا متمسكين بهذا الدين ، وكأنَّ التنصر والتنكر للديانة الإسلامية من شأنه أن يحوّل السنغال بحركة سحرية إلى بلد غني متطور !!

في الواقع هذا البلد بحاجة ، في اللحظة التاريخية هذه ، ليس إلى محاربة الإسلام ، وإنما إلى شيء آخر يتجسم فيه جلّ مشاكلنا ـ أو مشاكل العالم الثالث كله بصفة عامة ـ وهو تنظيف دماغ الإنسان السنغالي مما ترسب فيه من مظاهر الاستلاب الثقافي ، وإعادة الثقة إلى نفسه ، تلك مهمة صعبة وشاقة يتملص منها محترفو (التقدمية) لأنها تتطلب البداية بهم ؛ ولقد أصاب (غي دي كار GUY DE CAR) حينما قال على لسان أحد أبطاله : « إنهم ـ أعني : المتعلمين الأفريقيين ـ من الوصوليين الذين كانوا قد استعدوا مسبقًا ليؤدوا في أفريقيا دور الرجال الذين حسبوا

أنفسهم متطورين ومهيئين للقيادة لأنهم يعرفون لغة أخرى غير اللغات المحلية »[٥] .

منظمات المستعربين

بمقتضى قانون صدر سنة ١٩٠١م ، رخّصت الإدارة الفرنسية - في إطار محدود - للمسلمين بتأسيس جمعيات ثقافية إسلامية ، وتعتبر الجمعية الثقافية التي تأسست سنة ١٩٣٠م بمدينة « سانت لويس » السنغالية أولى هذه المنظمات الإسلامية بالسنغال ، إلاَّ أننا نجهل الشيء الكثير عنها ، مما يحمل على الاعتقاد أنها لم تتح لها فرصة لتقوم بدورها ، ولا غرو في ذلك ، فقد كانت القوانين الصارمة لها بالمرصاد .

ثم ظهرت سنة ١٩٣٧م جمعية « لواء تآخي المسلم الصالح » وهي جمعية إسلامية تهدف - حسب أحد بياناتها - إلى « العودة بالإسلام إلى سالف عهده ، سواء فيما يتعلق بشكله أو بجوهره ، وبعبارة أخرى : ممارسته كما كان يمارس على عهد رسول الله ﷺ »[٦] .

وفي الحقيقة لم تنجح أية جمعية إسلامية - في ظل الاستعمار - في إنجاز هدف من أهداف الإسلام في البلاد ، ولا عرفت حياة طبيعية إلاَّ حينما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، حيث اضطر المستعمر إلى التخفيف من غلواء ضغطه واستبداده ، بعد أن شعرت الشعوب المستعمَرَة بالظلم والحيف ، وهي صاحبةُ دورٍ خطير في تحرير البلد من المستعمِر .

---

(٥) غي دي كار : دماء أفريقيا .

(٦) رونيه لوك : (الأفارقة المسلمون) ص : ٢٦٦ .

وإلى جانب تعرية الاستعمار وفضحه ، كانت الجمعيات الإسلامية ترمي إلى نهضة حقيقية للإسلام ، وذلك بنفض غبار الماضي عنه ، وبث صحوة شاملة للمجتمع الإسلامي عن طريق نشر تعاليم الدين السليمة والبعيدة عن الخرافات والترهات والأضاليل والأباطيل .

وكان يعتقد عدد من قادة المنظمات الإسلامية ألاَّ أمل ولا جدوى في التفكير في تغيير أوضاع المجتمع الإسلامي السنغالي قبل العمل لتصحيح المعتقدات ، والعودة إلى الإسلام المصفّى من الشوائب عن طريق دراسة مصادره الموثوق بها ، وجاء بهذا الخصوص في ديباجة ميثاق الاتحاد الوطني للجمعيات الثقافية الإسلامية بالسنغال : « يعتبر - أي : تأسيس الاتحاد - انتصارًا كبيرًا في ميدان الكفاح من أجل تقدم الإسلام في أفريقيا السوداء ، وما الاتحاد إلاَّ استجابة صادقة لرغبات المسلمين الذين علمتهم الأيام أنَّ تكتل مسلمي السنغال واجب أكيد ، وضرورة قصوى أمام الأخطار المتمثلة في الخلافات الطائفية ، والنزاعات الشخصية ، والتنافس بين الزعامات لحب الظهور » .

ومن خلال هذه الديباجة نستشف ما يعانيه المجتمع الإسلامي في السنغال من جهة ، وما ينتظر من المنظمات والهيئات الإسلامية من جهود من جهة ثانية من أجل تحقيق :

* انبعاث حركة الإسلام بعد عهود طويلة من الخمول والجمود .
* لمّ شتات المسلمين ، ورأب صدوعهم ، وتقريب الزعماء بعضهم من بعض ، وإماتة النزاعات الطائفية .
* محاربة المشاحنات والتنافس البغيض على رئاسة الهيئات الإسلامية .
* معارضة أُولٰئك المصابين بمركّب الظهور . . .

فهذه هي الصراعات التي تنخر الزعامات الإسلامية في السنغال التابعة

للمستعربين ، وتجدر الإشارة إلى أن بعض الجمعيات الإسلامية تضم المستعربين ومن يتعاطف معهم ، بينما لا يمثل بعضها الآخر سوى (دوائر) تابعة للزعامات الصوفية ، وبعضها ليس إلاَّ تجسيمًا لنشاط فردي بحيث لا يجمع سوى بضعة أنفار غير قادرين على القيام بأي مهام[٧] .

الاتحـــاد الثقــافي الإســلامي

يعتبر الاتحاد الثقافي الإسلامي بحق أمّ الجمعيات الإسلامية بالسنغال التي تتوفر فيها الشروط للعمل في الحقل الإسلامي ؛ وكان يتمتع برصيد كبير من الحصافة والرصانة ، سواء من حيث مستوى تنظيماته وإداراته ، أم من حيث مستوى مواقفه السياسية والدينية وتطلعاته في ميدان نشر التعليم الإسلامي العربي .

تم تأسيس الاتحاد الثقافي الإسلامي سنة ١٩٥٣م على أيدي جماعة تأثروا بالأفكار الإصلاحية السائدة منذ بداية مطلع هذا القرن ، في المغرب وفي المشرق العربيين : فقد درس بعض قادة الاتحاد على شيوخ إصلاحيين في الجزائر بمعهد الشيخ عبد الحميد بن باديس بقسنطينة ، وطائفة أخرى من مؤسسيه تعرفوا على الحركة الإصلاحية الدينية من الإخوان المسلمين بالقاهرة .

وتميزت بداية نشاط الاتحاد الثقافي الإسلامي بحماس كبير وحركة

(٧) تلك آفة الحركة الإسلامية في السنغال ، فهناك جمعيات هادفة تضم عددًا كبيرًا من المسلمين ، وهناك كذلك العديد من أسماء المنظمات التي هي عبارة عن أشباه جمعيات أو جمعيات خيالية لا وجود لها عمليًا ، فضلاً عن تشتت نشاطات موجودة منها بفعل الطائفية وأطماع وطموح الزعماء .

دائبة ، وكان أيام الاستعمار محل متابعة واضطهاد وتنكيل ومطاردة ، وكانت الإدارة الأجنبية تتهمه بالعمل من أجل إحياء الجامعة الإسلامية بإيعاز من قوىً معادية لفرنسا ، ودامت المجابهة هذه زهاء سبع سنوات ، وكان حصول السنغال على استقلاله بنهايتها ، وفي الوقت ذاته بدأ الاتحاد يفقد نفوذه على إثر قبول رئيسه « شيخ توري » وظيفة حكومية ، إذ خفف من تهجماته على النظام القائم ، وتزامن ذلك مع تكاثف مطالب الجمعية حول توظيف أعضائه في جهاز الإدارة بغية اكتساب حياة مستقرة ومضمونة . وكانت للاتحاد فروع في كلٍّ من مالي ، وغينيا ، وفولتا العليا (بوركِنافاسو) ، وساحل العاج ، وتوغو .

ومما يؤسف له حقًّا أن ذلك التاريخ المليء بالنضال والبطولات أصبح أثرًا بعد عَيْن ، حيث يجتر الاتحاد تلك الذكريات المجيدة ، بينما صار اليوم هيكلًا عظميًّا أجوف لا روح فيه ولا حراك له ، بعد أن ابتعد المثقفون الذين كانوا يحركونه ، وانصرف عنه مناضلوه الحقيقيون ، وجلّ أعضائه اليوم من السيدات اللائي يملأن قاعات احتفالاته دون مساهمة تذكر .

ومن الإنصاف أن نسجل هنا بكل صدق وأمانة ما نهض به الاتحاد الثقافي الإسلامي من عبء بهدف دفع حركة الإصلاح إلى الأمام ، وما دعا إليه لتعرية المتاجرين باسم الإسلام ، ونازل كل من سوّلت له نفسه الوقوف أمام التيار الإصلاحي ، ورأى أنه « يصبح التصلب ضرورة عندما يستحيل الحوار » لكنه لا يقاطع أُولئك الذين يعرضون عنه بل « يجب الاتصال بهم بهدف إقناعهم » وحتى « المدافعون عن مصالحهم الشخصية والمعادون يلزم التماس صداقتهم » « في حين أن المساندين لا ينبغي تخييب ظنهم » وكانت الزعامة الطرقية هدفًا لحملات الاتحاد ،

وذلك عبر محاضراته وإرشاداته التي ينظمها من حين لآخر في الأماكن العمومية والمساجد والمدارس .

ورغم النشاط الدؤوب المشهود للاتحاد فإنه عجز عن ترسيخ أسس مؤسسة اجتماعية أو تعليمية على مدى ثلاثين سنة من العمل في الحقل الإسلامي ، ويعود السبب في ذلك إلى ضآلة إمكاناته المادية ، إذ ما كان يتوفر على مصدر مالي عدا اشتراكات أعضائه ، وسبقت الإشارة إلى أنَّ الهيئات الإسلامية محرومة من المساعدات التي كانت تقدم إلى الهيئات الثقافية في ظل الإدارة الاستعمارية .

وقد انعكس أثر هذا العجز على تمويل مشاريعه ، وعلى نزاعه مع الزعامات الطرقية التي تملك الملايين ، وتستطيع تعبئة مئات الآلاف من الأتباع عندما يحلو لها ذلك .

لقلة إمكانات الاتحاد فإنه كان يأمل أن تقوم الدولة بإنجاز برامجه « نحن متأكدون أنه إذا تحررت العقيدة الإسلامية من الشوائب الزائفة التي حاصرتها إلى حدّ الاختناق ، تصبح وسيلة نشطة للتقدم ، لقد خضع الإسلام للتشويه والتحريف ، ويجب انبعاثه ، ولا يمكن تحقيق ذلك بشكل مرض ما لم تهتمّ الدولة بهذا العمل »[٨] .

الاتحاد الوطني للجمعيات الثقافية الإسلامية في السنغال

تأسس الاتحاد الوطني للجمعيات الثقافية الإسلامية في السنغال في أكتوبر [تشرين الأول] سنة ١٩٦٢م بإيعاز وتشجيع من حكومة الرئيس

(٨) رونيه لوك مورو : (الأفارقة المسلمون) ص : ٢٦٩ .

«سنغور» ؛ ويضم حوالي (٣٢) جمعية إسلامية ، إلاَّ أن بعض هذه الجمعيات ليست سوى (دوائر) تابعة للزعامات الطرقية .

يرأس الاتحاد منذ تشكيله السيد عبد العزيز سي الابن ، وينتمي إلى أسرة تيجانية كبيرة ، وكان والده خليفة عامًا للطائفة التيجانية زهاء خمس وثلاثين سنة ، ويحتفظ بالأمانة العامة للاتحاد السيد مصطفى سيسي ، وهو من أتباع الأسرة المذكورة .

تسير جميع الجمعيات العاملة في الساحة الإسلامية في السنغال تحت رعاية وإرشادات الاتحاد الوطني مبدئيًا ، لكن تطبيقيًا تعمل كل هيئة على انفراد ، ولا تنتظر توجيهات من الاتحاد ، ولا تنصاع لأوامر تأتي منه ، ففي نظر بعض العاملين في الحقل الإسلامي لم يكن الاتحاد يومًا من الأيام ميدانًا صالحًا للعمل الإسلامي لأنه لا يعكس إلاَّ وجهة نظر سلطات لا تؤمن بالإسلام إلاَّ بمقدار ما يخدم مصالحها الزمنية ؛ بل يذهب بعض ناقديه إلى اعتباره عامل عرقلة أمام السير الطبيعي للجمعيات الإسلامية .

الاتحاد التقدمي الإسلامي في السنغال

ظهر الاتحاد التقدمي الإسلامي في السبعينيات على يد السيد مصطفى نيانغ ، وكان رجل ثقة للرئيس السابق «سنغور» ، وبواسطته حصل على توصيات رسمية من حكومة السنغال لجمع التبرعات من بعض الدول العربية ؛ ويبدو أن السيد «نيانغ» غير متعلم ، لكنه استطاع أن يحظى بثقة أصحاب النفوذ في السنغال .

ومن إنجازاته : مدرسة جميلة لروضة الأطفال ، وهي فريدة من نوعها بالنسبة لمسلمي السنغال .

جمعيـــة المســـتعربين التابعين للحزب الاشتراكي السنغالي

تأسست هذه الجمعية سرًّا بالمغرب عام ١٩٦٥م ، وهي تجمع الطلبة الذين انضموا إلى الحزب الحاكم ، وكان الدافع في البداية ـ كما قيل ـ لانضمام الطلبة إلى جمعية المستعربين يعود إلى أملهم في ضمان منحة دراسية في حالة تكرار الرسوب عدة مرات .

تقوم الجمعية في إطار نشاط الحزب الاشتراكي الحاكم بتنظيم المحاضرات الدينية ، وبلغ من أهميته أن تصدّى سنة ١٩٧٢م لشيوخ عارضوا مدونة الحالة المدنية واعتبروها منافية لروح الشريعة الإسلامية ، خصوصًا في بلد يدين ٩٥٪ من سكانه بالإسلام ؛ فقامت الجمعية بالردّ عليهم والدفاع عن المدوّنة وإظهار مزاياها ؛ رغم تبعية الجمعية للحزب الحاكم فإنها لا تتوفر ـ خلافاً لجلّ المنظمات الإسلامية ـ على مؤسسات تعليمية ذات أهمية ، أو على مساجد تابعة لها .

جمعيَّـــة النهضــة الإسلاميـــة

تأسست جمعية النهضة الإسلامية في ١٦ أكتوبر [تشرين الأول ١٩٧٦م] ، على يد جماعة مستعربة مثقفة ، ولا تضم في أحضانها سوى عنصر (تكلور) ، لديها مدارس ، خاصة في مدينة (تياس) القريبة من مدينة داكار .

ومن إنجازاتها : أصدرت مجلة ذات مستوىً عالٍ ، لكنها اخترمت لعجزها عن تمويلها فلم يصدر منها إلاَّ عدد واحد .

جماعـــة عبـــاد الرحمٰن

ظهرت جماعة عباد الرحمن نتيجة انفصال حدث داخل الاتحاد الثقافي الإسلامي في السبعينيات إثر نشوب خلاف بين بعض قادة الاتحاد والنخبة التي أصبحت فيما بعد النواة الأولى لجماعة عباد الرحمن ، ويقع مقر الجماعة بمدينة (تياس) التي تبعد عن العاصمة داكار حوالي خمسين كيلو متراً ؛ تمتاز هذه الجماعة عن غيرها من المنظمات الإسلامية في السنغال بعملها علانية بالسياسة ، ومعارضتها جهرًا لسياسة الحكومة التي تعتقدها منافية للإسلام ، ودعوتها جهرًا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، واعتبار الدين الإسلامي دينًا رسميًّا للبلاد ، وذلك احترامًا لأبسط قواعد الديمقراطية ـ أي : قاعدة الأغلبية ـ وتعتبر جماعة عباد الرحمن أحسن المنظمات العاملة في الساحة الإسلامية تنظيمًا وانضباطًا وتمسكًا بالإسلام قولاً وفعلاً ، ومن أصدقها فيما تدعو إليه . . .

* تملك عدَّة مدارس إسلامية عربية ، وتقوم بتنظيم ملتقيات لشبيبتها خلال العطل الصيفية ، وتسهر على تلقينها التربية الإسلامية الحقَّة ، وتتصدَّى للهيئات المعادية للإسلام ، وذلك بفضح الوسائل الخبيثة التي تستخدمها الكنيسة والماسونية والجماعات المنحرفة من المسلمين .
* تنظم من حين لآخر التظاهرات الثقافية على غرار المنظمات غير الإسلامية ، بهدف إظهار قوة الإسلام ، وقد تسنى لها ذلك لتوفرها على كوادر تتقن اللغتين العربية والفرنسية .
* تصدر الجماعة ، رغم وضعها المادي المزري ، صحيفة منتظمة

تعكس آراءها حول مختلف القضايا التي تهم المسلمين .

لقد تأثرت جماعة عباد الرحمن أيما تأثر بجماعة التبليغ ، وقد يكون العامل في ذلك تعهد عدد من قادتها مراكز ومؤسسات هذه المنظمة في الباكستان وأوروبا .

حركـــــة الفــــــلاح
للثقافة الإسلامية السلفية بالسنغال

تأسست حركة الفلاح منذ الخمسينيات تحت أسماء مختلفة لظروف اقتضت ذلك ، وكان يتزعمها الحاج محمود با ، وكلمة الفلاح مأخوذة من اسم مدرسة كانت بمكة المكرمة[٩] سبق أن درس فيها الحاج محمود نفسه .

رغم جهود المؤسسين الأوائل لم تتطور الحركة تطورًا ملموسًا إلاَّ بعد انخراط بعض كبار التجار فيها ، ولذلك تعتبر سنة ١٩٧٥م ميلادًا جديدًا لها حيث خرجت من طور الاختفاء إلى العمل العلني ، وكانت خلال حقبة من الزمن لا تتورع عن استعمال أساليب الهجوم العنيف على الشيوخ ومؤسساتهم ، وكان هؤلاء يناصبونها العداء ، ويغرون بها السلطات ، وحدث عدَّة مرَّات أن حُرم أعضاؤها من تنظيم الأحاديث الدينية في المساجد أو حتى الإقامة في بلد ما ، ثم طوت الحركة صفحة المجابهة المباشرة مع ممثلي الطرق الصوفية لتنتهج مسلكًا جديدًا يتسم بالتخفيف من حدَّة الهجوم ، ويجعل من أولوياتـه تكوين النشء

(٩) انظر بخصوص مدارس الفلاح بغربي أفريقيا : عدد جريدة الشرق الأوسط الصادر بتاريخ ٩ سبتمبر [أيلول] ١٩٨٥م .

الإسلامي .

ويبدو أن كلمة السلفية أضيفت إلى التسمية الأصلية إثر اتصال بينها وبين جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية التي تقوم بمدّها بمساعدات جوهرية ، مكّنتها من فتح أكثر من عشرة مراكز إسلامية ، يتكون كل مركز من مسجد جامع ومدرسة تضم أكثر من ستة فصول ، وهذه المراكز منتشرة في مختلف أنحاء جمهورية السنغال .

تتشكل حركة الفلاح من أجهزة متعددة ، هي :

* المجلس الوطني الذي يجتمع مبدئيًا كل ثلاثة أشهر ، ويتكون من اثنين وسبعين عضوًا ؛ منتخبين أثناء دوراته بعد ترشيحهم من قبل الفروع الثانوية .
* المكتب الوطني ، وهو الجهاز التنفيذي للمنظمة ، ويتكون من واحد وعشرين عضوًا ، على رأسه رئيس مسؤول أمام المجلس الوطني .
* يوجد في كل أقاليم السنغال فروع للحركة ، ولكل فرع مكتب إقليمي ؛ ويعتبر مجلس الشباب من أهم تنظيمات حركة الفلاح .

وتملك الحركة مسجدًا جامعًا كبيرًا بمدينة داكار حيث مقرها الرسمي ، وبجانبه مدرسة رحبة تتسع لأكثر من ألف تلميذ ، وعندما تنتهي ستضم السلك الابتدائي والإعدادي والثانوي .

ورغم الإمكانات المتوفرة لدى الحركة ـ بالقياس إلى غيرها ـ فإنها لم تظهر فعالية ذات شأن في ميادين التربية والتعليم ، كما لا تتمتع بإدارة سليمة من حيث التنظيم والتنسيق ، فهي إدارة لا ضوابط لها ، الأمر الذي جعل مردود نشاطها زهيدًا بالقياس إلى ما ينتظر منها ؛ وقد يكون السبب في هذا التدني في المردود : اعتمادها أكثر فأكثر على مسؤولين ذوي

خبرة ـ لا شك ـ في دنيا التجارة والنشاطات المالية ، لكنهم غير متوفرين على شروط قيادة منظمة إسلامية تنهض أساسًا بنشاطات تعليمية وثقافية وفكرية وعلمية وإرشادية . . . وقد ساهم هؤلاء المسؤولون غير المهيئين فكريًا في زرع الفوضىٰ في سير المنظمة ، والتخبط في عملها ، وضآلة نتائج تحركاتها في الساحة الإسلامية في السنغال .

لا شك أن تنحية العناصر المتعلمة والمتنورة من شأنه أن يعرقل مسيرة الحركة ؛ ولا يشك أحد من أعضائها أن الجماعة التي تتخذ القرارات تبذل الجهد لتوفير المال اللازم لكنها بعيدة كل البعد عن التفكير العقلاني المنظم ، لذلك يبدو أنه مهما كانت أهمية توفير المال باسم الحركة فإنّ إبعاد العناصر الصالحة المثقفة عن مركز إصدار القرارات يكون على المدى البعيد وبالاً على مستقبل حركة الفلاح .

لم نتعرض في هذا الفصل إلّا لعدد قليل من الجمعيات الإسلامية الموجودة في السنغال ، وذلك لأنّ باعثنا هو إعطاء فكرة عامة عن سير هذه المنظمات دون التأريخ لها .

على أنه لا مندوحة من ذكر نشاطات تعليمية لا تنضوي تحت منظمات المتعربين الآنفة الذكر ، لكنها حركات مهمة ؛ يقوم بهذه النشاطات بعض المشايخ ؛ من ذلك : مدارس الشيخ « أحمد إمباكي » بمدينة (جوربيل) ، ومدارس الشيخ » إبراهيم إنياس » بمدينة (كولخ) ، كما أنَّ الشيخ « مرتضى إمباكي » يقوم بمجهود مشكور ببناء المدارس ، وتستحق مدرسة (كوكي) القرآنية التابعة للشيخ « أحمد الصغير لو » كل تنويه حيث تخرّج كل سنة عددًا كبيرًا من « حملة كتاب الله تعالى » ، وتعتبر بجدارة المدرسة القرآنية الأنموذجية الوحيدة في السنغال .

الفصل السادس

المستقبل المنظور للمنظمات الإسلامية

تلقى الجمعيات الإسلامية لدى بداية تأسيسها ترحيبًا منقطع النظير من طرف مختلف طوائف المسلمين ، فينضمون إليها ، وتتكثف نشاطاتها ، وتنتشر فروعها فتصل إلى الأقاليم حيث تصادف تجاوبًا وحماسًا لدى العناصر الشابة ، ولكن سرعان ما تلمح في الأفق عوامل معوقة تعترض سبيل الجمعيات وتشل حركتها ، ومن هٰذه العوامل : محدودية إمكاناتها المادية ، إن لم نقل انعدامها كليًا ، إذ لا تتلقى غالبية هذه المنظمات أي دعم مادي من أي جهة كانت ، في حين أن الجمعيات القليلة التي تتلقى مساعدة ما تكون تافهة لا تسمن ولا تغني من جوع ، ولا تكون منتظمة ، ولا تلبي حاجاتها ، مما يجعل برامجها حبرًا على ورق ، ونشاطاتها جامدة ، فلو قارنّا إنجازات المنظمات النصرانية بنظيراتها الإسلامية لظهر هذه الأخيرة قزمًا باهتًا ، إذ تحصل الهيئات التابعة للكنيسة بالسنغال على مساعدات مكثفة وسخية ومنتظمة من الطوائف النصرانية ، من أوروبا ، وأمريكا الشمالية ، تستطيع بواسطتها أن تموّل مشاريع اجتماعية ومؤسسات تعليمية تسير كلها كأحسن ما يكون ، بينما لم تنجز هيئة إسلامية واحدة بناء وتسيير بنية تعليمية أو صحية منذ ظهور هذه المنظمات إلى يومنا هذا إلاّ في حدود ضيقة .

على أن بعض الجمعيات حظيت بمنح مالية محدودة من الخارج ، لكنها مساعدات مؤقتة غير مبنية على أسس ثابتة تجعلها دائمة ، بل أحيانًا تعطى لحسابات سياسية محضة مما يجعلها موجهة إلى غير المستحقين ، لأن هؤلاء يمثلون جهات رسمية .

ولا بد من الإشارة إلى خطأ بعض الجهات المساعدة التي تعتقد أن مجرد تقديم دعم مادي مرة واحدة كافٍ لتحقيق الغرض ؛ إذ لا يعقل أن

ينطق شعب بكامله اللغة العربية خلال أربع أو خمس سنوات لأنَّ دولة قدمت مساعدة بمبلغ مليون فرنك مثلاً لصالح التعليم الإسلامي العربي ؛ ففرنسا التي تنفق منذ قرنين من الزمن الملايين على لغتها ، لو استكثرت إنفاقها وأوقفته لما نالت ما نالت اليوم في السنغال .

ولم تتقلص المساعدات المادية التي تُعطى إلى الجمعيات الإسلامية فحسب ، بل تراجعت جهات عديدة عن مساهمتها في تكوين الأطر لها ، وذلك برفض المعاهد والجامعات الإسلامية في الدول العربية الطلبة السنغاليين الوافدين إليها ، بينما مستقبل العربية في هذا القطر متعلق إلى حدّ بعيد بهؤلاء الشباب .

تفتقر الجمعيات الإسلامية إلى كوادر تتحلى بالكفاءة ، إذ مهما كانت النوايا حسنة ، فإن قدرًا من الكفاءة العلمية يفرض نفسه عنصرًا لا مندوحة من وضعه في الاعتبار لتسيير الحركات الإسلامية حيث ينبغي أن يطغى الجانب الثقافي والعلمي على العاطفة والاعتبارات الذاتية الأخرى .

هذا النقص في الكوادر أفضى أحيانًا إلى إسناد القيادات إلى غير المؤهلين لها ثقافيًا ، وإلى الإخلال بمبادىء العمل الجماعي والإخلال بالأمانة ، والتهوين بالمسؤولية ، وحدوث فضائح فادحة ، على أنَّ بعض الجمعيات تنبهت إلى هذه الثغرة وسعت إلى سدّها « ينتظر من الذين تقع على كواهلهم مسؤولية إدارة الاتحاد ـ للجمعيات الثقافية الإسلامية ـ أن يكونوا قدوة حسنة في الاتحاد ، والعمل بقوة ونشاط لنشر ثقافة الإسلام »[١٠] ، ولقد برهنت الأحداث أن بعض قادة المنظمات الإسلامية

(١٠) جريدة (أفريقيا المسلمة) عدد [١] .

لم يكونوا في مستوى المسؤولية ، فخانوا الأمانة ، وباعوا عقيدتهم بأبخس الأثمان ؛ فها هو أحد زعماء الاتحاد الوطني للجمعيات الثقافية يدلي بتصريح بدولة إسرائيل في أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٦٩م لـ « يوحنا مصري » الصحفي في جريدة إسرائيلية يقول فيه : « إنَّ من أسباب زيارتي لإسرائيل التأكد من صحة الاتهامات الموجهة ضدها ، لأنَّ الصحف العربية التي تأتينا في السنغال تصوغ أخطر التهم ضدّها »[١١] ، وادّعىٰ أنه زار مدينة القنيطرة السورية ومرتفعات الجولان وقال : « إن سكان تلك المناطق الذين استطعت أن أتحدث إليهم يتمنون العيش بسلام مع الإسرائيليين »[١٢] .

ومما يطمئن بخصوص هذا التصريح أن الأمانة العامة للاتحاد أصدرت بيانًا تفنّد فيه مزاعم هذا المسؤول وتتبرأ منه .

ونخلص هنا إلى القول بأنَّ مثل هذه التصرفات ناتجة عن اعتماد الجمعيات أكثر فأكثر على العلاقات الشخصية والقرابة العائلية ، وكون الرئيس أو الأمين العام محور الهيئة ومهيمناً عليها بشكل استبدادي وفردي على حساب العمل الجماعي بحيث تختنق جميع المبادرات النابعة من الأعضاء الآخرين ، فإذا مرض الرئيس أو الأمين العام توقف العمل ، وإذا غاب تعطَّل النشاط ، وإذا كان صاحب كفاءة محدودة أو ثقافة قليلة أبعد من هو أكثر منه خبرة ودراية ، ويأخذ أحيانًا أخطر القرارات دون ارتباط

---

(١١) من بيان «حقيقة» وقّعه السيد عبد العزيز سي الابن ، رئيس الاتحاد الوطني للجمعيات الإسلامية بتاريخ ٥ نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٦٩م ، ردًا على تصريحات أحد أعضاء الاتحاد في إسرائيل .

(١٢) كان هذا الشخص قد زار إسرائيل تلبية لدعوة منها وجهت إلى الإمام الراتب لمدينة داكار بحجة تقصي الحقائق بعد أن أقدم يهود على إحراق المسجد الأقصى .

بمقتضيات قانون الجمعية .

ومن جراء ذلك تظل مالية الجمعيات ، حتى تلك التي تعتبر هادفة ، من أهم ما يثير كثيرًا من الريبة ، نظرًا لغياب أو عدم توظيف جهاز مراقبة حقيقية ، لأنَّ كبير مسؤولي المنظمة يقوم وحده بدور الخصم والحكم ، ضاربًا بكل الضوابط المنصوص عليها عرض الحائط ، وتبعًا لذلك يغوص جل المنظمات في بحر من الفوضى والاضطراب والاهتزاز حتى أصبح بعضها هيكلًا بلا روح ، وأوراقًا بحتة لا حراك فيها ؛ تضاف إلى ذلك الصراعات الممقوتة بينها ، حتى بين تلك التي تجمعها مواقف متشابهة ، وهي صراعات مبعثها اختلاف وجهات النظر في الشكليات ، أو تباين مصالح أفراد يقودونها وفق هواهم ، مما أدّى إلى تبدّد وتشتت القوى الإسلامية ؛ فحبَّذا لو ائتلفت تلك التي تتشابه اتجاهاتها وتلتقي أهدافها ـ وإن اختلفت وسائلها ـ فتكوِّن كتلة متماسكة تسير بالمجتمع الإسلامي إلى مرفأ النجاة .

ويلاحظ أن أية جمعية من هذه الجمعيات لا تتوفر على أبسط خطة مدروسة لما تُقْدم عليه من عمل ، أي : ليس لديها مستقبل منظور لأمورها بل تتركها للصدفة ، ولا ريب أنَّ لذلك عواقب وخيمة تضرّ بمستقبل الحركة الإسلامية في السنغال .

خاتمة

المستقبـــل المنظور للإسلام في السنغال

مستقبل الإسلام في السنغال مرهون بمدى ما يعتور هذا البلد من تغيرات في حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وما سينجم عنها من تحولات ومن تحور وتطور في المفاهيم ؛ لكن ذلك لا يحول دون التنبؤ بالمستقبل عن طريق استقراء الحاضر ، وليس هذا الحاضر في الواقع إلاَّ انعكاسًا للماضي الذي شرحنا بعض بقضاياه وحضوره الخفي في عقيدة عدد من مسلمي السنغال .

على هذا النحو يتوقف فهم وضع الإسلام الراهن في هذا القطر على تفهم ودراسة المؤسسات الدينية والسياسية والاجتماعية السائدة قبل انتشار العقيدة الإسلامية ، وكذا مختلف الظواهر التي رافقت الإسلام وعايشته ، كظاهرة التشيّخ ، والاستعمار ربيب النصرانية ، والماسونية ، والبهائية ، والقاديانية ، والاستلاب الثقافي . . . وما تمخض عن ذلك من علاقات وأنماط جديدة وأيديولوجيات وفدت إلينا من وراء حدودنا في موجات متلاطمة متعارضة متحاربة . . . فاستقراء أولٰئك كلّه كفيل بأن ينير طريقنا ، ويوضح معالم ما سيؤول إليه مستقبل الإسلام في السنغال .

فعبر الصفحات السابقة حاولنا رسم لوحة تعكس صورة معتقدات وتنظيمات المجتمع التقليدي ، ومدى التأثير بينه وبين الدين الإسلامي ، وبان جليًّا أن كفة الميزان رجحت لصالح الإسلام ، لأنَّ مؤسسات المجتمع الأرواحي فقدت كل مبادرة ومقاومة في دنيا الفكر والروح ، فغدت جامدة قارة ، وبدت عليها عوامل البلى والفناء ، حيث لم تعد

مقوماتها جديرة وكفيلة بضمان بقائها واستمرارها ، أو مستجيبة لمتطلبات التطور الطبيعي ؛ وهي من ناحية أخرىٰ عاجزة عن منازلة الإسلام ، بل أصبحت متجاوَزة مهترئة بالية مهجورة ، باستثناء كبار السن من أتباع الديانات الأرواحية ، فإنها لا تستهوي أحدًا ؛ بل تستحيي العناصر الشابة من التظاهر بالانتساب إليها ، أو إبداء أي حماس نحوها ، وإنما تخفي أرواحيتها ، خصوصًا في المراكز الحضرية .

ففي الوقت الذي يرى الأرواحي أن قوام حياته التقليدية قد انهار بفضل ضغوط الحضارة الحديثة ، فإنَّه يحس بانعزال تام عن محور الحياة ، حينذاك يجد في كنف الإسلام سعة تقضي على عزلته ، وتسهل له الاندماج والانصهار في الحضارة الجديدة دون أن يشعر بانفصال حاد بينه وبين ماضيه .

على أنَّ المستعمر رغم أنفه ، شجع اندماج الأرواحي في المجتمع الإسلامي ، لأنَّه كان يفضِّل أن يتعامل مع لابسي (بوبو)[1] بدلاً من العراة على حدّ تعبير أحد المستعمرين .

فمنذ أن تكثف الاحتكاك بين مختلف العناصر في المراكز الحضرية في السنغال بفعل نشوء الصناعات أصبح الانتساب إلى المجتمع الأرواحي وما يحفل به من ممارسات يمجها الذوق السليم مكروهًا مخجلاً لدى الفئات (المتطورة) التي لا تتردد في نبذ الأرواحية للتطلع إلى غيرها من معتقدات دينية وقيم حضارية أخرىٰ ؛ وغدا الانتساب إلى الإسلام أو إلى غيره من الأديان السماوية بمثابة رقي اجتماعي وعامل قبول في مستويات راقية من المجتمع السنغالي .

(١) « بوبو » لباس تقليدي في السنغال

كان بعض الأرواحيين يرفضون قبل ثلاثة عقود أن تؤدّى الصلاة في منازلهم ، وإذا حدث أن صلّى فيها أحد المسلمين أرغموه على جمع تراب موقع جبهته وحمله معه ؛ أما الآن فقد تبدّل الوضع كثيرًا حتى أصبح كثير من هؤلاء الأرواحيين مسلمين يستميتون في الدفاع عن الإسلام ، والدعوة إليه .

وعلى الرغم من غياب تنظيم إسلامي متخصص للدعوة ، وعلى الرغم من تأخر المسلمين في السنغال ، بل وفي غيره في ميدان إيجاد الوسائل الكفيلة بالتشويق إلى الإسلام ، فإنّ مما يتميز به الدين الإسلامي في هذا البلد أنه يبدأ مشوبًا بالممارسات الغريبة ؛ حتى إذا مضى زمن بدأ يستعيد صفاءه وجلاءه فتذهب عنه الشوائب ويصقل من الأدران ، وذلك بفضل انتشار التعليم العربي الإسلامي .

يبقى استهواء البقية الباقية على الأرواحية مشكلة الإسلام بالسنغال اليوم ، وهي أقلية لا شك ، لكنها ذات وزن فيما لو نجحت النصرانية في استقطابها واحتوائها ، وفي الحقيقة هناك سباق حادّ بين الإسلام والطوائف النصرانية من كاثوليكية وبروتستانتية ، وبين البهائية والماسونية والشيوعية . . . لاكتساب هذه الأقلية إلى جانبها .

وعلى الرغم من تعدد المعوقات للدعوة الإسلامية ، وتوفر وسائل الإغراء في يد أعدائها ، فإنّ الإسلام يشق طريقه بخطىً وئيدة لكنها ثابتة ، ولم تفلح النصرانية في اللحاق به ، حيث لم يكتف باكتساح أراضٍ عذراء ، بل نجح في جذب بعض من ارتموا في أحضان الكنيسة ، فمن الواضح « أنّ الإسلام اليوم بتوسع تام في أفريقيا الغربية ، حيث الهداية إليه تستمر على حساب الوثنية بل على حساب

النصرانية »[٢] .

ثم تأتي مشكلة الخرافات والممارسات الدخيلة على الإسلام في السنغال : إنّ احتراف تعاطي الطلاسم شوّه الثقافة الإسلامية ، بل أصبح يمثل خطورة كبيرة بالنسبة لمستقبل عقيدة التوحيد ، ولا شك أن انحدار هذه الممارسة قد لا يحدث في القريب العاجل ، لكن رسوخ قدمه لا يحول دون التنديد به والتنبؤ بمستقبل حالك له ، حيث تلوح دلائل انقراضه على المدى البعيد . إنّ توفر وسائل الاتصال والإعلام الحديثة من سيارة وطائرة وإذاعة وتلفاز . . . إضافة إلى ما حدث من استئناف في التبادل الثقافي بين السنغال والعالم الخارجي بعد نيله الاستقلال السياسي الذي أنهى انقطاعًا دام حقبة من الزمن ، يحمل على الاعتقاد بأنّ عهد الانعزال الثقافي انقضى بالنسبة للمسلمين في السنغال ، وأنّ تيار التبادل عاد إلى سالف عهده ، الأمر الذي سيساعد على تصحيح عقيدة المسلمين ؛ ومن مظاهر ذلك : إسراع نفر من الشباب المسلم إلى المعاهد والجامعات العربية ليتفقهوا في الدين ، ويقوِّموا ما اعوج من المفاهيم الدينية ، وقد بدأ هذا النشاط يعطي ثماره بفضل المساعدات المادية والمنح الدراسية التي تقدمها الدول الإسلامية إلى الجمعيات السنغالية ، أضف إلى ذلك اللقاءات والندوات والمؤتمرات العالمية التي تعقد هنا وهناك في عالمنا الإسلامي ، وأصبح المسلم السنغالي يحضرها ويأخذ طرفًا منها ؛ وقد سمحت له تلك المنتديات بالاطلاع على ما استجد في الساحة الإسلامية ، وما أنجزته أمتنا وما تنجزه ، وكانت هذه اللقاءات عاملًا لاستئناف صلات الثقافة التي توقفت إثر احتلال السنغال من طرف قوات الاستعمار .

(٢) دو منتي : F. DU MONT. (AL HADJ OUMAR TaL DU FOUTA) P.224.

لقد أصبح باستطاعة المسلم السنغالي اليوم أن يدعو إلى اللقاءات الدولية لدراسة قضايا المسلمين دونما خوف أو وجل ، والتعرف على مشاكلهم والمساهمة في بحث حلول لها (قضية فلسطين مثلاً) .

ومن الأكيد أنه سيأتي يوم ليس ببعيد - إن شاء الله - يستحيي فيه متعاطو الخرافات باسم الدين من أن يتظاهروا بانتمائهم إلى عالم الشعوذة والخزعبلات مثلما يخجل الأرواحي من التصريح بانتمائه إلى الأرواحية ، ذلك أن الإسلام المفهوم حقًا ، والمأخوذ من مصادره العذبة الصافية هو وحده الكفيل بالقضاء على هذه الأعمال الساقطة ؛ ويتجه التيار الجديد بفضل الصحوة الحالية إلى حمل المسلمين على معرفة حكم الله تعالى في التصرفات التي يُقدمون عليها .

ولا تزال الكنيسة الحاقدة قابعة تتربص بالإسلام الدوائر ، وتتحين الفرص للإيقاع به وبالمسلمين ، فهي منذ أن وصلت إلى المنطقة بمساعدة الاستعمار ما برحت تحوك الدسائس ، ويذهب بها الشنآن كل مذهب ، فبعد أن يئست من تحويل المسلمين عن دينهم واستمالة قلوبهم نحوها ، تتشفى باختلاق كل ما من شأنه أن يخلق البلبلة في نفوسهم وتشكيكهم في عقيدتهم الإسلامية ، وكان شعارها : إن رفضوا النصرانية فلنشكل منهم مسلمين طالحين .

ومن الإنصاف أن نعزو نجاح الكنيسة في فتح ثغرة في السنغال إلى توفر ثلاثة عناصر بيدها ، لو توفرت للإسلام لحقق العجب العجاب ، وهي : المال والسلطة وجهاز إدارة كفء ، لقد سهل لها توفر المال بيدها إنجاز مشاريع ضخمة قد تعجز الدولة السنغالية عن إنجازها ، فقد بنت الكنيسة في السنغال مؤسسات اجتماعية واقتصادية ، وعن طريقها استطاعت أن تتغلغل إلى المجتمع السنغالي .

وثاني العناصر هو الاستعمار : كان يساندها ويفتح لها المناطق ، ويغدق عليها الأموال ، وفي الوقت ذاته تدعمها المنظمات التنصيرية العالمية بالمال ، ولم يكن المال والسلطة كل سلاحها بل كان بجانبهما القدرة الفائقة في التنظيم والإدارة بفضل ما تتمتع به من كوادر تتحلى بالكفاءة الإدارية . غير أن كل ذلك لا يبهرنا ولا يذهلنا لأن جميع القرائن تومىء إلى أن الكنيسة استنفدت مختلف الوسائل : كانت بيدها السلطة فانفلتت منها قبل أن تنجز كل مخططاتها التنصيرية ؛ وكانت ولا تزال تملك المال الوفير فلم يُجْدِها نفعاً ، أما الآن وقد عادت السلطة السياسية إلى الأغلبية المسلمة بعد تنحية الرئيس النصراني ، وبدأ الوعي يدب في نفوس المسلمين ، ومن نال الوعي . نال حسن التدبير ، والآمال معقودة في أن يتطور لدى المسلم السنغالي وعي صحيح بانتمائه إلى أمة الإسلام ، وبمتطلبات الانتساب إليها ، عندئذٍ يحقق الدين الإسلامي في هذا البلد ما لا يتصوره العقل .

ولقد كان تعاون الكنيسة مع النظام الاستعماري سبة في وجهها ، لذلك ينظر إليها كأحد أعمدة الاستعمار ، مما جعلها تبعث الخوف في النفوس ، فهي على كل حال جزء لا يتجزأ من حضارة الرجل الأبيض التي قال عنها الفيلسوف الإنجليزي « برتراند راسل » : [إنها لا مستقبل لها بين الشعوب التي رزح أهلها أجيالاً طويلة تحت سلطان الرجل الغربي ، وأصبحوا يكرهون تلك التجربة][٣] .

بينما الصراع بين الإسلام والشيوعية في السنغال أقل حدة واحتداماً من صراعه ضد الأرواحية والنصرانية والانحرافات الأخرى ، ويلقى الإسلام

---

(٣) سيد قطب (نحو مجتمع إسلامي) ص : ٢٦ .

لدى صراعه ضد تلك المعتقدات ـ ولو كانت فاسدة ـ مقاومة ضارية لأسباب تاريخية وسياسية واقتصادية . . . في حين أن الشيوعية لا ترتكز على أساس ثابت[٤] في وجودها في هذا القطر ، فهي جسم غريب هش لاطاقة له بمزاحمة الإسلام ، فضلاً عن مقولات المنضوين تحت لوائها التي تمتاز بالضبابية والخواء .

ليست الشيوعية في السنغال في مركز يسمح لها بمنافسة ومنازلة الإسلام لسبب بسيط ، وهو أن الماركسية تنطلق من المادية الجدلية ، وتنكر الدين ، وتشهر السلاح في وجهه ، فيما الإنسان السنغالي متدين بالفطرة مما يجعلهما على طرفي نقيض .

ولكن هل يعني تفوق الإسلام في السنغال على خصومه انتصارًا على كل صعوباته الداخلية والخارجية ؟ بدلاً من الرد على هذا التساؤل يبدو أنه كي يستمر الإسلام في انتصاره لا بد حتماً من توفر الشروط التالية :

● يجب تشخيص أمراض المجتمع الإسلامي السنغالي أولاً عن طريق نقد ذاتي موضوعي بناء ، ثم القيام فوراً بمعالجة تلك الأمراض ، وانتهاج سبل من شأنها تفادي الوقوع مرة أخرى في مثل الورطة التي هو فيها اليوم .

● ويتحتم كذلك نفض العقلية المغلقة عنا ، والتي ظلّت مخدعاً للخرافات والأباطيل ، ولا نخال أنّ ثمة شيئاً أكثر ضرراً للحركة الإسلامية في السنغال من تلك العقليات القائمة التي لن تزيد المسلمين إلَّا تخلفًا ماديًا ومعنويًا ، وقد ساهمت في ظهور أشخاص يدَّعون

(٤) ويكفي الاطلاع على نتائج الانتخابات التشريعية والرئاسية لعام ١٩٨٣م حيث لم تحصل مختلف الهيئات الشيوعية على ١٪ من مجموع الأصوات ، للتأكد من مدى ضعف الحركة الشيوعية رغم تعدد أحزابها ـ أربع هيئات سياسية ماركسية معترف بها رسميًا ـ .

الصلاح ، يتقوقعون في البيوت باسم التعبد والتبتل ، مشيعين فكرة التواكل ، في حين أنه ليست هناك مؤامرة ضد الإسلام أخطر من ترك هؤلاء الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً بالابتعاد عن معترك الحياة لزعمهم أن الإسلام عبارة عن حمل سبحات طويلة والتظاهر بالتقوى ، والإعراض عن الارتزاق بالطرق المشروعة .

● يضاف إلى ذلك افتقار الإسلام في السنغال إلى شخصية قوية أو جمعية تستقطب كل الفئات ، وتثير الحماس في نفوس أبناء المسلمين ، وتكون في مستوى المرحلة الراهنة من متطلبات الدعوة من كفاءة ونزاهة وإخلاص وتجرد وعلم وورع . . شأن كبار الدعاة الذين ظهروا على الساحة السنغالية في القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن الحالي .

● يفتقر الإسلام في السنغال إلى دعوة إسلامية منظمة ومنسقة مبنية على أسس علمية تتمشى مع ما استجد في دنيا الإعلام ، كما أنه بحاجة إلى دعاة ذوي كفاءة عالية وإخلاص مشهود ، بينما نلاحظ بكل مرارة أن غالبية من يتصدون للدعوة ويتصدرون مناصب هامة فيها لا تتوفر فيهم الشروط المطلوب توفرها في الداعي ، بل إن أغلبيتهم يكتفون باجترار ما لا يلفت نظر أحد ، ولا يشوق إلى العقيدة الإسلامية .

● كي تنجح الحركة الإسلامية في هذا البلد ، لا بد من القضاء على جذور التفرقة وآفة الطائفية ، فالمسلمون اليوم طوائف وفرق شتى تتناحر وتتباغض ، وأسر تتقاطع ، وطرق صوفية تتقاتل فيما بينها ، ومنظمات متشرذمة لا تجتمع على كلمة ، ولا تتفق على خطة في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى .

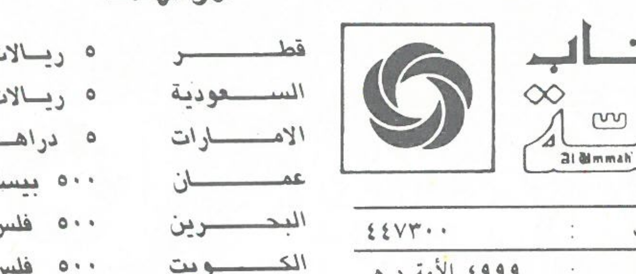
● حبذا لو أسس خيار المسلمين في السنغال هيئة إسلامية عليا تجمع

شملهم وتشرف على شؤون المجتمع الإسلامي ، وتكون محور تنسيق وانسجام وائتلاف وتفاهم ، وتستقطب مختلف الطوائف والفئات على تباين مشاربها واتجاهاتها ، وتعمل من أجل توحيد الصفوف ، وتكون جبهة أمام كل خطر يحدق بالإسلام والمسلمين سواء جاء من الغرب النصراني أو الشرق الشيوعي ، وحصناً يحول دون بلورة الأفكار الهدامة .

● على أن الإسلام الذي أنقذ السنغال من براثن الأرواحية وأدخله في دائرة الدول المتحضرة ، وجعله يصمد أمام سياسة الاحتواء والذوبان الاستعمارية والتنصير ، لا تزال له طراوة وطاقة كفيلة بأن تجعله يقود المسلم السنغالي إلى رحاب السنة السنية ، ففي رحابها يجد كل ما يشبع رغباته المادية وما يغذي روحه .

إذا كان الإسلام قد عرف فترة غفوة وركود فإنه صحا وأقيل من عثرته ، وشرع يؤدي وظائفه على وجه مرضٍ الآن في السنغال ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهـــرس



هاتف	:	٤٤٧٣٠٠
تلكس	:	٤٩٩٩ الأمة د هـ
برقياً	:	الأمة الدوحة
ص . ب	:	٨٩٣ الدوحة ـ قطر

ثمن النسخة

البلد	الثمن
قطر	٥ ريالات
السعودية	٥ ريالات
الامارات	٥ دراهم
عمان	٥٠٠ بيسة
البحرين	٥٠٠ فلس
الكويت	٥٠٠ فلس
العراق	٥٠٠ فلس
اليمن الشمالي	٥٠٠ فلس
اليمن الجنوبي	٥٠٠ فلس
الأردن	٥٠٠ فلس
سورية	٥٠٠ قرش
لبنان	٥٠٠ قرش
مصر	٥٠٠ مليم
ليبيا	٥٠٠ درهم
السودان	٥٠٠ مليم
تونس	٥٠٠ مليم
الجزائر	٥ دنانير
المغرب	٥ دراهم

○ في باقي دول آسيا وافريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعادله .

○ في الأمريكتين وأوربا واستراليا وباقي دول العالم دولاران أمريكيان أو ما يعادلهما .

يطلب من وكلاء توزيع مجلة الأمة

الكويت يطلب من دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع
ص . ب ٢٠١٤٦

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

١٩٨٦/٢٤١م

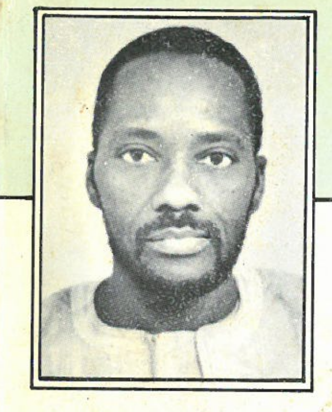
مطابع الدوحة الحديثة

■ من الدوافع التي ينبغي أن تقوّي تمسك السنغاليين بعروة الإسلام : كونه عامل وحدة وطنية ، وباعث شعور بوحدة الانتماء إلى أمة ، إذ لم تكن هناك صلة تربط «الأولوفي» بـ «الماندنكي» أشد متانة من صلة الدين الإسلامي ، فقد وحّد العناصر المختلفة واللغة والعادات ، ونظّمها ، وقارب سلوكها ونمط حياتها .

■ لعلّ أفدح خطأ يقع فيه دعاة القضاء على الإسلام في السنغال هو تصورهم أن تصفية هذا الدين تتم بالسهولة التي يصفّي فيها انقلابُ عسكري آثار حكومة عائمة غير ذات قاعدة شعبية متينة !! فمن المتعذر - إن لم يكن من المستحيل - استئصال العقيدة الإسلامية الراسخة الجذور في النفوس ، لأنّ ذلك منوط باجتثاث عروق الشعب السنغالي نفسه ، وإذا ما قامت ثورة بإبادة مواطنيها تفقد تلقائيًا علّة قيامها .

■ الآمال معقودة أن يتطور لدى المسلم السنغالي وعي صحيح بانتمائه إلى أمّة الإسلام ومتطلبات الانتساب إليها ... عندئذٍ يحقق الدين الإسلامي في هذا البلد ما لا يتصوره العقل .

■ مهما حاول رجال الكنيسة اليوم في السنغال نفي ارتباط مؤسستهم الدينية بالاستعمار فإنّ الوقائع والأحداث التاريخية تؤكد وجود صلة وثيقة بينهما : ويُنظر إليها كأحد أعمدته ، وهي على كل حال جزء لا يتجزأ من حضارة الرجل الأبيض التي قال عنها « برتراند راسل » : إنها لا مستقبل لها بين الشعوب التي رزحت أجيالاً طويلة تحت سلطان الرجل الغربي ، وأصبحت تكره تلك التجربة .



عبد القادر سيلا

● ولد في السنغال «كومبتوم» ١٩٣٩م .
● تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في السنغال وموريتانيا والمغرب ، وحصل على الإجازة في العلوم السياسية من جامعة محمد الخامس بالرباط عام ١٩٦٧م .
● حصل على دبلوم المدرسة الوطنية والإدارة والقضاء ، قسم الدراسات الدبلوماسية عام ١٩٧٧م .
● عمل مدرسًا للغة العربية في ثانويات السنغال .
● يعمل حاليًا مستشارًا ثانيًا في سفارة السنغال بالرياض .
● كتب عددًا من الأبحاث والمقالات ، بجريدة « العلم » المغربية ، و « جوهر الإسلام » التونسية ، و « المسيرة » السنغالية ، و «الأمة» و «الدوحة» القطريتين .

مطابع الدوحة الحديثة